روايات تاريخ الإسلام

جهاد المحبين

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

[redacted]

الثلاثاء
9 سبتمبر 2003
12 رجب 1424هـ

روايات تاريخ الإسلام

جهاد المحبين

رواية ادبية غرامية تصور ماساة من مآسي المحبين وما يقاسونه في سبيل الحب ، ثم كيف يجزون على صبرهم ووفائهم ، وتدور الدوائر على اهل البغي والعدوان

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

أبطال الرواية

سليم : محام شاب بالقاهرة .
حبيب : موظف حكومي بالقاهرة ومقيم بحلوان .
سلمى : خطيبة سليم .
ادما : خطيبة حبيب .
شفيقة : اخت حبيب .
سليمان : والد سلمى .
سعيد : والد أدما .
فؤاد : شقيق سليم ومقيم بالاسكندرية مع امهما .
داود : تاجر اسكندري بالقاهرة .
وردة : ارملة غنية بالاسكندرية .
اميلي : ابنة وردة .

١

في حديقة الازبكية

اقيم بحديقة الازبكية بالقاهرة في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٧ احتفال كبير لمناسبة مرور خمسين عاما على تولي الملكة فكتوريا عرش انجلترا ، فزينت الحديقة بالانوار ، وتقاطر اليها الناس زرافات ووحدانا نساء ورجالا واولادا من جميع الطوائف والملل ، وكلهم فرحون بما اعد في تلك الليلة من دواعي البهجة ومعالم الزينة .

وكان الناس يخطرون جماعات في طرقات الحديقة وحول بركتها وعلى جوانب الساحة التي كانت الموسيقى تصدح فيها . فلم تكن ترى بينهم الا وجوها باسمة وقدودا مائسة ، هذا يخاطب صديقا له ويمازحه ، وذاك يداعب ولده ويلاعبه ، وتلك تنادي فتاتها لتسير بجانبها خوفا عليها من ان تتيه بين الجماهير . وآخرون جالسون الى موائد صغيرة يسمعون عزف الموسيقى او يتأملون جمال الطبيعة وتلالؤ الانوار .

وكانت ابواب الحديقة غاصة بالداخلين والخارجين ، والحجاب يمنعون الناس من الدخول بغير رقاع الدعوة ، والشرطة يهولون على الرعاع لئلا يكدروا بمزاحمتهم وضوضائهم صفو الاحتفال .

فلما كانت الساعة التاسعة مساء ، وصل الى احد ابواب الحديقـة شاب يرتدي الملابس الافرنجية ، جميل الصورة ، ربـع القامة رشيقها ، ولكن وجهه كان مقطبا عبوسا تلوح عليه علائم الكآبة والارتباك ، ويبدو مستغرقا في التفكير . فلما رأى ازدحام الناس هناك انتبه بغتة كأنه هب من رقاد ، ثم مد يده الى جيبه واخرج رقعة الدعوة ودفعها الى الحاجب فسمح له بالدخول .

وقف الشاب بعد ان قطع خطوات داخل الحديقة ، وبدا حـائرا لا يدري الى اي جهة يسير . ثم استأنف سيره الى ساحـة الموسيقى . وكان لارتباكه وهواجسه كأنه سائر في خلاء قفر لا يستوقفه منظر ، حتى وصل الى المقهى القائم بجانب الساحة فعرج عليه وجلس على كرسي به ، ثم اشعل سيجارته واخذ يدخن والناس يخطرون امامه ذهابا وايابا بين رجال ونساء واولاد في مختلف الازياء ، وتلوح عليهم امارات السرور ، لكنه لم يكن ينتبه لحركاتهم وضحكاتهم . وبقي في شاغل عنهم بما يفكر فيه، ويده تعبث بعصاه ، وكلما انتهى من تدخين سيجارة اشعل اخرى حتى امتلأ الجو حوله بالدخـان .

ولم ينتبه من غيبوبته هذه حتى جاء غلام القهوة يسأله عما يريـد ، ولم يكن في حاجة الى شيء يشربه او يأكله ، ولكن العادة قضت عليه بطلب بعض المشروب فجيء به اليـه ، ثم عـاد الى ما كان فيه من الاستغراق في التفكير .

وفيما هو في ذلك شعر بيد لمست كتفه ، وسمع في الوقت نفسـه صوت هاتف باسمه يحييه ، فالتفت مبغوتـا فاذا بصديـق له ينظر اليه مبتسما وقد مد يده لمصافحته . فنهض للقائه وصافحـه ، وشعر لـدى مشاهدته بأنه كان في ضيق واتاه الفرج ، فدعاه الى الجلوس قائلا : « اهلا وسهلا بك يا عزيزي سليم » . فجلس سليم وهو يقول : « اني لسعيـد

برؤيتك يا عزيزي حبيب ، لكن ماذا جاء بك الى هنا وعهدي بك انك مقيم بحلوان ؟ » .

فقال حبيب : « جئت لتفريج كربتي بمشاهدة هذا الاحتفال ، لكنني لم ازدد الا كربا ، وقد ارسلك الله الي في ساعة الحاجة اليك » . ثم تنهد وواصل حديثه قائلا : « نعم انا في ارتباك عظيم يا سليم ، على اني احمد الله اذ بعث بك لتعزيتي ، ولا غرو فان الصديق الصادق من شارك صديقه في السراء والضراء .

واشعل سليم سيجارته ، ونظر الى حبيب نظرة تفيض بالمودة والاخلاص ، ثم قال : « لا اراك الله ضيقا يا صديقي ، انك والله لاعز من الصديق واقرب من الاخ واذا لم يدفعني الى غوثك دافع الحب فعشرة الصبا وحقوق التربية تتكفلان بذلك » .

فقال حبيب وقد كادت ظلمة العبوسة تنقشع عن وجهه : « لقد قضت الظروف بأن التحق بخدمة الحكومة المصرية كما تعلم ، وهي خدمة ما كان اسعدها لو لم يكن من امرها ما هو جار الآن من استغناء الحكومة عن كثير من موظفيها ، اقتصادا في النفقات . ولم يكن يخطر ببالي يوم انتظمت في سلك الوظيفة ان يكون هذا مصيرها ، وقد قضيت خمس سنوات اعمل بهمة ونشاط حتى كانت الثورة العرابية فهاجرت من هذه الديار ومعي والدتي وشقيقتي ، فتكبدن مشاق اسفار ، وانفقت ما كنت قد ادخرته من راتبي الشهري ، وحينما عدت في اوائل السنة الماضية لم اكن املك قرشا واحدا ولكني استطعت العودة الى منصبي الحكومي ، وبدأ حالنا يتحسن وكدنا ننسى تلك المشقات والاسفار ، لولا ان داهمني القدر بما لم يكن في الحسبان » . قال ذلك وتأوه .

فتطاول سليم بعنقه اليه في اهتمام وسأله ان يكاشفه بحقيقة الامر .

فقال حبيب : « علمت من ثقة ان الحكومة ما زالت معتزمة الاستغناء

عن بعض الموظفين ، وقد اخبرني احد الاصدقاء بأن هذا الاستغناء سيشملني ، ولا يخفى عليك ان بيتي مفتوح وجيبي خال للاسباب التي قدمتها » .

فقال سليم : « من الذي انبأك بذلك ؟ »

قال : « انبأني به صديقنا حسان » .

فهز حبيب رأسه مستهزئا وقال : « ومن اخبره بذلك ؟ ان الامر لعلى عكس هذا » .

قال : « لقد اكد لي ان الخبر صحيح لا ريب فيه » .

قال : « ثق بأنه خبر عار من الصحة بل هو عكس الواقع تماما » .

فأبرقت اسرة حبيب ونظر الى سليم بعين المستطلع وقال : « وكيف ذلك ؟ لعلك تمزح ؟ » .

قال : « كلا لست مازحا ، وليس ما بلغك الا محض اختلاق ، وما اخبرك به صاحبنا الا لغرض لنفسه انت تعلمه . والحقيقة انك ستنال مركزا احسن مما انت فيه و .. » .

فقطع عليه الكلام قائلا : « احق ما تقول ، ومن اين علمت هذا ؟ » .

قال : « نعم انك سترتقي الى مركز احسن في نظارة الداخلية ، وقد علمت ذلك من ثقة ، فكن مطمئنا ، وان غدا لناظره قريب ، فلا تبتئس ولا تجزع » .

قال حبيب وقد انبسط وجهه : « حقق الله الآمال يا عزيزي ، والله انك لوجه السعد ، ولولا مجيئك لكنت اصبت بمرض لفرط قلقي وهواجسي . واني لاشكر لك صدق مودتك واحمد الله على ما بشرتني به » .

فقال سليم : « ان الله هو الرازق ، وهو سبحانه واسع الفضل والرحمة . وهب انك خرجت من خدمة الحكومة ، فالاعمال الاخرى كثيرة

وابوابها مفتحة لمثلك » .

قال : نعم ، لله الحمد على كل حال ، وهو لا ينسى احداً من خلقه . وانما اهمني ان من يترك خدمة الحكومة نادرا ما يوفق في غيرها ، وليس هذا لقلة الاعمال الاخرى ولكن لتعوده الراحة وتقاعده عن اكتساب مـا يؤهله لسواها ، ولقد مرت بذاكرتي هذه الليلة سيرة حياتي الماضية فندمت ندما لا مزيد عليه لاني لم اعمل بمشورة ابي رحمة الله عليه واتعـاطى التجارة معه ، ولو اني اطعته لكنت في غنى عن هذا الارتباك ، ولكن مـا قدر كان » .

* * *

مضى الصديقان يتجاذبان اطراف الحديث ، وقد زايل حبيبا تردده وارتباكه واخذ يمتع نظره بما حوله من المناظر . ثم قال لسليم : « ترى ما الذي جاء بك الى هنا الليلة ، تاركا مشاهدة خطيبتك المحبوبة ؟ ام لعلك تسر بمشاهدة هذه الانوار وتأنس بهذا الازدحام اكثر من سرورك وانسك بمشاهدة عروسك المقبلة ؟ » .

فعلا وجه سليم الاحمرار لتذكره خطيبته ومـا يقاسي من اجلهـا ، ولكنه حاول اخفاء عواطفه وهواجسه فسكت برهة وحبيب يراقب حركاته كأنه يريد استطلاع مكنونات قلبه ، لعلمه بما هناك من روابط المحبة بينه وبين خطيبته . ثم قال سليم محاولا اخفاء ما في ضميره : « لقد قضيت معها فترة قصيرة اول هذه الليلة ، ثم رأيتها في حاجة الى الرقاد فتركتها لتمضي الى فراشها وجئت اقضي بقية السهرة في هذه الحديقة » .

فلم يقتنع حبيب بذلك ، ولكنه اظهر الاقتناع به على ان يستطلـع حقيقة الامر بنفسه في الغد ، ثم لاحظ على سليم انه عاد الى الصمت وقد علت اسرته الكآبة وبدا عليه الاضطراب ، فقال له مبتسما : « ارى صديقي

قد وقع فيما كنت فيه ؟. فهل ترى ذلك خوف الفصل من الخدمة ايضا ؟ ».

فعلا وجه سليم الاحمرار ، وحاول التكلم لكنه تلجلج وعاد الى الصمت ، ولم يشأ حبيب ان يلح عليه في السؤال حتى لا يجرح عواطفه او يحرجه . وكانت الموسيقى قد انتهت من العزف فوقف وقال لصديقه : « الا توافقني على ان نتمشى في الحديقة قليلا لنتمتع بمناظرها ؟ » .

فوقف سليم وهو يحاول عبثا اخفاء عواطفه ، وحبيب يتجاهل امره ويحدثه في امور مختلفة تتعلق بالزينة وبهرجها واشتغال الناس بها ، تسكينا لما لاحظه عليه من حدة القلق ، وان كان شديد الميل الى معرفة قلقه وانقباضه .

ومشيا صامتين بعض الوقت وكل منهما يفكر في امر ، الى ان وصلا الى باب الحديقة الشمالي ، فنظر حبيب الى ساعته فاذا الساعة قاربت العاشرة فقال لسليم : « هلم بنا نخرج الى مكتب البريد لاني انتظر بريدا من اوربا هذه الليلة » . فوافقه وخرجا من الحديقة ، ومشيا حتى وصلا الى مكتب البريد ، وسأل كل منهما الموظف المختص : «هل توجد لديه خطابات باسمي » . ففحص الخطابات الموضوعة امامه ، واخرج من بينها خطابين ، ناول احدهما لسليم والآخر لحبيب .

وتناول حبيب كتابه وقرأ عنوانه فاذا هو بخط كأنه يعرفه ، ثم نظر الى طابع البريد على الغلاف فاذا هو طابع مصري وعليه خاتم مكتب بريد القاهرة فعلم انه صادر منها ، ففض الخطاب واخذ يتلوه لنفسه فاذا فيه :

« يا سادتي هل يخطرن ببالكم   من ليس يخطر غيركم في باله ؟ »

« يا شقيق الروح ومالك الفؤاد

« اكتب اليك هذه الكلمات بغير امضاء ، والقلب يخفق ، واليد

ترتعش ، فاذا خفق قلبك وارتعشت يداك ، فلعلك تدرك بعض ما لك في قلبي من المحبة التي كتمتها حتى طفحت ، ولعلك اذا عرفت ذلك ان ترثي لي، والا فانها شكوى ابثها لمن ملك قلبي مع بقاء امري مكتوما في ضميري عنه وعن سواه الى ان يقضي الله بما يشاء » .

فبغت حبيب واخذ يعيد تأمل الخطاب ويكرر قراءته متعجبا ، ثم حانت منه التفاتة الى سليم ، فاذا هو يتلو الخطاب الذي تسلمه وقد امتقع لونه واخذت الورقة تنتفض في يده . فطوى حبيب كتابه وخاطب سليما قائلا : « خيرا ان شاء الله يا سليم ؟ » .

فقال : « ليس هناك سوى الخير يا عزيزي » . ثم طوى الكتاب ووضعه في جيبه ، ومشى يريد الخروج من مكتب البريد . فمشى حبيب بجانبه وهو يفكر تارة في كتابه ، وطوراً فيما ظهر على صديقه من مظاهر الاضطراب ، واراد استطلاع حقيقة حاله فمنعه التأدب . لكنه قرر في نفسه استعمال الحيلة للوقوف على سر اضطراب سليم ، واخذ يجاذبه اطراف الحديث الى ان قال له : « تبارك الخلاق العظيم ، أليس من دلائل قدرة الله انك لا تكاد تجد بين الناس اثنين يتفقان في الخلقة والاخلاق ؟ وقد صدق من قال :

« انما نحن في اختلاف عقول مثلما نحن في اختلاف وجوه »

ولما آنس منه اصغاء ، واصل كلامه فقال : « اني اذا اغضبني امر . استطيع اخفاء عواطفي قط ، فان كان الى جانبي احد عرف انني في انقباض كما عاينت ذلك في هذه الليلة » .

فتنهد سليم وقال : « لعل ذلك ينطبق علي ايضاً » . وكأنه احس بقرب تغلب صديقه على لسانه فبادر بقطع الحديث وتعلل بسيله الى الرقاد

قائلا : « اني اشعر بتعب وألم في الرأس ، ولهذا افضل الرجوع الى البيت الآن ، وان كنت اود قضاء بقية السهرة برفقتك » .

فأدرك حبيب مراده ولكنه تجاهل وقال : « ان النوم افضل شيء للراحة . وانا ايضا احس مثل هذا التعب لما كنت فيه من الشواغل في هذه الليلة ، وارجو ان ادرك القطار الذاهب الى حلوان الآن » .

ثم مد يده مودعا ، فتصافحا وسار كل في سبيله وفي نفسه امر يحاول اخفاءه عن رفيقه .

٢

شفاء المحبين

مشى حبيب قاصدا الى محطة باب اللوق فلما توارى عن صديقه اخرج من جيبه الخطاب الذي تسلمه من مكتب البريد ، وجعل يردد نظره فيه ويقرؤه تكرارا مستعينا بأنوار الشوارع على تأمل الخط النسائي الذي كتب بـه .

وما زال كذلك حتى وصل الى المحطة فاذا بالقطار قد اقلع منها الى حلوان منذ دقائق ، وسأل عن القطار التالي اليها فعلم انه يقوم في منتصف الليل ، فساءه ذلك لما هو فيه من الهواجس والارتباك . ثم رأى ان يمضي فترة الانتظار في التنزه ، فتوجه الى الجزيرة ليقضي هناك ساعة ثم يعود ليستقل القطار ، وكان يسير والخطاب في يده ، وافكاره تتجاذبها الهواجس وراح يستعرض بذاكرته البيوت التي يختلف اليها والسيدات اللواتي

عرفهن لعله يعرف كاتبة الخطاب ، فلم ينتبه لنفسه الا وهو على كوبري قصر النيل، فوقف هناك يتأمل منظر الماء الجاري، ويشنف سمعه بموسيقى خريره وارتطامه بأعمدة الكوبري . وراقته الانوار المتلالئة على جانبيه كأنها كواكب ثابتة في ذلك الفضاء ، فمضى يمشي الهوينى حتى وصل الى الجزيرة ودخل شارعها المظلل بالاشجار فمشى فيه ، ثم عرج الى منعطف نحو الشاطىء فسمع قرقعة عربة مارة في الشارع ، ثم رآها وقفت ، فتربص ليرى ما يكون من امرها ، فاذا بشخص ينزل منها ويمشي في منعطف بالقرب من النخلة التي اختفى هو خلفها حتى بلغ النيل فوقف قليلا ، ثم انحدر الى اسفل الشاطىء وجلس على حجر هناك .

وتأمله حبيب فاذا به يشبه صديقه سليما ، ثم تحقق انه هو بعينه ، فأشكل عليه امره وعجب لمجيئه الى هناك في ظلام الليل وقال في نفسه : « يحسن ان امكث مختفيا لارى ماذا جاء به الى هنا » . ثم تذكر ما رآه فيه من الارتباك ذلك المساء فخاف ان يكون قد وقع في اليأس واراد الانتحار غرقا في النيل ، فمشى بضع خطوات بكل خفة حتى اصبح وراءه وجلس مختفيا وراء نخلة اخرى هناك ليرى ما يكون من امره ، وليسارع الى انقاذه اذا رآه يلقي بنفسه في النيل ، وشكر الله على ما كان من تأخره عن اللحاق بالقطار الى حلوان .

اما سليم فانه جلس الى الشاطىء مطرقا والماء جار امامه والظلام مستول على تلك الجهة الا ما يصل اليها من الاشعة البعيدة المنبعثة من انوار الكوبري . وبعد قليل اخذ يتلفت يمنة ويسرة كأنه يحاذر ان يراه احد ، ثم تنفس الصعداء وقال متحرقا : « آه من حوادث الزمان ، وآه من جهالتي وقلة تدبيري ، آه يا سلمى يا حبيبتي ومنى فؤادي » .

ثم خنقته العبرات فأطلق لنفسه عنان البكاء حتى سمع حبيب صوت شهيقه فتفتت قلبه حزنا عليه وجاشت عواطفه حتى كاد يشاركه البكاء ،

لكنه امسك ليرى ما يكون منه بعد ذلك فاذا به بعد البكاء والشهيق برهة عاد فقال : « اي سلمى حبيبتي ، اني احبك والله حبا لم اشعر بمثله لغيرك، ولم اكن اعلم ان الحب يملك القلب ويتسلط على العواطف الى هذا الحد. آه ما احلى الحب وما امره » .

وعاد الى البكاء حينا ، ثم قال محدثا نفسه : « آه يا سليم ! هل خطر ببالك انك تصبح ألعوبة بيد الحب وأنت انت الذي لم تكن تعبأ بحوادث الزمان ولا بأي امر من الامور ؟ آه يا الهي !. ماذا اعمل لاتخلص من هذا التردد ؟ أأترك سلمى ؟.. كلا والله لا اتركها ولا اتخلى عنها لانها تحبني وقد علقت آمالها على وعدي لها بالزواج ، وهي ملاكي وحبيبتي ومنتهى املي . لا لا . لا اتخلى عنها لاني لا ادري ماذا يلم بها اذا علمت بترددي في محبتها . لا لا . يجب الا اتردد ، انها كعبة آمالي . روحي فداك يا سلمى ، لعلك الآن راقدة في فراشك وقد كحل عينيك الكرى ، فنامي هنيئا ولا تزعجك الاحلام ! » .

وكان حبيب يسمع اقواله كلمة كلمة ويتمعن فيها لعله يستطلع من خلالها سببا لهذه التأوهات .

ثم سمعه يقول وقد امسك نفسه عن البكاء ومسح عينيه بمنديله : « ماذا جرى لي ؟ لماذا انا خائف ؟ اني خائف على سري ان يباح ولكن من يذيعه وليس هنا غير النيل شاهدا ؟ » .

ثم سكت واخرج ورقة من جيبه وتأملها في الظلام ، ثم تنهد وعاد الى البكاء وقال : « نعم لا اتركك يا سلمى ، ولكن ماذا افعل بوالدتي التي زهدت في الدنيا كلها من اجلي ، ربتني بدموعها وسهدها، فأدخلتني المدارس وعلمتني ، وانفقت كل شيء في سبيلي ولم تدعني اتحمل ضيما ، وهي انما فعلت ذلك آملة ان اكرس حياتي لخدمتها ، وانها اهل لاكثر من ذلك فكيف اخالف امرها او اعقها ؟ لا لا . يجب ان اكون طوع ارادتها لان ايامها في

هذه الدنيا معدودة .. يجب ان افعل كل ما تأمرني به ! »

وسكت ثم عاد فقال : « لا لا . ان والدتي تريد ان اتخلى عن سلمى حبيبتي ، وانا لا استطيع ان اترك سلمى ولـو تركتني روحي او تركتني والدتي الحنون . ان سلمى وضعت كل آمـالها في فكيف اخيـب املها . واتركها تموت حسرة واسفا ؟ سامحك الله يا والدتي ! لماذا بالغت في نهيي عن الاقتران بها ؟ ولماذا هددتني بأن تتركينني اذا لم اترك سلمى ؟ أصحيح انك لن تعديني ولدا لك اذا اصررت على زواجها ؟ ويلاه ماذا افعل ؟ ليس بي الا انهاء حياتي فأتخلص من هذا التردد وألقي نفسي في هذا النيل » .

فلما سمع حبيب كلامه ، تحفز للحاق به وامساكه عن الانتحار غرقا ، لكنه ما لبث ان سمعه يقول : «لا لا. اذا قتلت نفسي فاني اكون قد قتلت والدتي وحبيبتي ايضا ، فهما ولا شك ستموتان حسرة بعدي » .

ثم رآه ينهض ويتحول عائدا الى العربة ، فتقهقر حبيب مختبئا خلف النخلة حتى لا يراه سليم فيكدره ذلك لحرصه على اخفاء ما به عن الناس كافة . وكانت العربة في انتظار سليم عند اول الشارع فركبها وامر السائق بتحول الاعنة وعاد به الى المدينة .

وهنا رجع حبيب من حيث أتى ، وهو يعجب لذلك الاتفـاق الذي كشف له عن سر صديقه ، وقد رثى لحاله وشعر بمقدار القلق الذي يعانيه . ولم يكن يعلم ان مشكلته معقدة الى هذا الحد .

ونظر الى الساعة فاذا بالليل كاد ان ينتصف، فهرول مسرعا الى المحطة خوفا من ان يفوته القطار ، فأدركه قبل اقلاعه بقليل .

وفي طريق القطار به الى حلوان ، عاد فأخرج الخطاب الذي تسلمه من مكتب البريد واخذ يتأمله ويكرر تلاوته محاولا حل رموزه وكشـف معمياته . لكن محاولاته لم تزده الا ارتباكا ، ولم يستطع ان يعرف صاحبة الخطاب لانه كان يتردد على بيوت كثيرة في القـاهرة ويشاهـد فتيـات

كثيرات ، ولم يكن يخطر له امر الحب مطلقا ، ولذلك لم يكن يتتبه لحركات احداهن لخلو ذهنه من ذلك . على انه مع هذا ظل يستعرض في ذاكرته من كان يزورهن كثيرا من اولئك الفتيات ، وتذكر واحدة منهن كان يسر لمشاهدتها للطفها ورقة جانبها وتواضعها ، وكانت من اكثر الفتيات رقة وتهذيبا ، ولم يلحظ منها مطلقا انها ممن يملن الى المغازلة بل كان يراها بعكس ذلك لا تتكلم الا بحساب ، ولا تأتي ما يشتم منه رائحة الطيش ، فاستبعد ان تكون صاحبة الخطاب .

وقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس حتى وصل القطار الى محطة حلوان فطوى الخطاب ووضعه في جيبه ونزل قاصدا منزله فاذا بوالدته لا تزال في انتظاره وقد استبطأته . فلما قرع جرس الباب نادته باسمه فأجابها ففتحت الباب واستقبلته سائلة عن سبب تأخره ، فلفق لها عذرا قبلته ، ثم سأل عن اخته فقالت له : « انها في الفراش منذ وقت قصير ، لان اسرة الخواجه سعيد جاءت لزيارتهم عند العصر ، ولم تعد الى القاهرة الا في القطار الاخير الذي غادر حلوان منذ قليل » .

فلما سمع اسم تلك الاسرة ، خفق قلبه بشدة لم يعهدها قبل ذلك، وسأل والدته : « وكيف حال الخواجه سعيد واسرته ؟ » .

فقالت : « هم جميعا بخير ، وقد تناولوا العشاء هنا وسألوا عنك كثيرا ، وقبل ان يبرحونا بالقطار الاخير اتفقنا على ان نسير معا يوم الجمعة القادم الى اهرام الجيزة للتنزه ، على ان تذهب شقيقتك شفيقة معنا ، لان الآنسة ادما ابنة الخواجه سعيد طلبت ذلك ، وانت تعلم مقدار حبها لشفيقة وحب شفيقة لها » .

وما طرق اذنه اسم ادما ، حتى اشتد خفقان قلبه ، وحدثته نفسه بأنها هي لا سواها صاحبة الخطاب الذي تسلمه ، وكان اسمها قد تردد في ذهنه وهو في القطار ، لكنه تجلد وتمالك عواطفه ريثما تنكشف له

الحقيقة ، وان شعر منذ تلك الساعة بميل شديد الى تلك الفتاة ، وود لو تكون هي مرسلة الخطاب اليــه . ثم ودع والدته وذهــب كل منهما الى فراشه . لكنه لم يستطع الرقاد لشدة هواجسه فبقي يتقلب فيه حينا دون ان ينام . ثم نهض ومضى الى خزانة كتبه فأخرج منها كتابا وعاد الى فراشه ، ليتلهى بمطالعته . وشعرت به شقيقته وهو يمر بغرفتها فسألته عن سبــب نهوضه من الفراش فقال : « جئت لآخذ رواية اطالع فيها ريثما انام » .

قال ذلك ودخل الى سريره والشمعة مضيئة على مائدة بجانبه ، واخذ يقرأ في الكتاب . لكن عواطفه كانت لا تسمح له بالمضي في القراءة ، فكان يخرج الخطاب من جيبه بين آونة واخرى ويعيد قراءته .

وقضى في ذلك معظم الليل حتى كاد يطلع الفجر ، واذا بوالدته داخلة غرفته وقد عجبت لسهره الى تلك الساعة . فلما شعر بدخولها عليه اخفى الخطاب في الكتاب واغلقه ، ولما سألته عن سبب سهره زعم لها انه مغتبط بمطالعة احدى الروايات ولم يشأ ان ينام قبل ان يتمها ، فصدقته ومضت لشأنها . اما هو فأخذ الكتاب ووضعه في الخزانة واغلقها ثم عاد الى فراشه وقد انهكه السهر والتعب فنام الى ان حانت ساعة خروجه الى عمله ، فنهض وتناول قليلا من الشاي ، ثم مضى الى عمله .

٣

سليم وسلمى

عاد سليم في العربة من شاطىء النيل وعيناه مبتلتان بالدموع وقــد

اخذ منه القلق كل مأخذ ، واشتدت به لوعة الغرام ، وكان يظن ان امره ما زال مجهولا من كل انسان على انــه كان يشعر ان كتمانــه حبه مضر بصحته وعقله ، ويود من صميم قلبه ان يلقي صديقا يبــث اليه شكــواه تخفيفا للوعته .

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يؤسيك او يتوجع

وكان يثق بصديقه حبيب كل الوثوق ولكن خشي مفاتحته بالامر من تلقاء نفسه .

ولكن حبيبا كان من الرقة وحسن الذوق على جانــب عظيم ، فبقي رغم وقوفه على سر حب صديقه ، لا يخاطبه بشيء في شأنه ، ولا يسأله عنه خوفا من ان يعد ذلك منه تطفلا او فضولا .

وكان سليم مقيما بغرفة مفروشة في نزل بأحد شوارع القاهرة ، لانه كان وحيدا بها ، ولم يأتها الا منذ بضع سنين ليمارس مهنة المحاماة ، ولما كان غير واثق بنجاحه فيها ، آثر الا يأتي بوالدته معه ، وتركها مقيمة بمنزل اخيه المتزوج في الاسكندرية ، على ان يأتي بها لتقيم معه متى استقر بــه المقام بالقاهرة .

واتفق له بعد مجيئه الى القاهرة ببضعة أشهر ، ان تعرف الى سلمى خلال تردده الى بيت ابيها ، وهو من ابناء بلدته ، فتعلق قلبه بها ، واعتزم خطبتها لنفسه لما آنس فيها من الادب والتهذيب والكمال . لكنه لم يخبر والدته بذلك اول الامر ، فلما اطلعها عليه بعد حين ، فوجىء بعدم موافقتها على هذه الخطبة ، وراجعها مرارا فلم تزدد الا اباء ، واخيرا بعثت اليه بذلك الخطاب الذي تسلمه من مكتب البريد ، مذكرة اياه بحقوقها عليه ، مؤكدة انها ان لم يعدل عن خطبة الفتاة فلن تعده ولدها ، بل لن تبقى على قيــد

الحياة لانها ـ ان لم تمت حسرة وكمدا ـ فستقتل نفسها لتستريح من شقائها بعقوقه ومخالفته ارادتها !

وكان رغم شدة تعلقه بسلمى ، واعجابه بخصالها ، لا يريد ان يخالف والدته ، فوقع في حيرة كادت تدفع به الى وهدة اليأس والانتحار .

فلما عاد الى غرفته اضاء الشمعة وبدل ثيابه ، ثم جلس الى مائدة بجانب سريره واخرج كتاب والدته ليعيد قراءته ، فلما نظر اليه عاد فطواه وارجعه الى جيبه خوفا من اثارة عواطفه ، واشعل سيجارة اخذ يدخنها وفكره مشغول بما هو فيه من الارتباك ، وباضطراره الى كتمان امره عن خطيبته حتى لا تتكدر ، وربما ادى بها الحزن الى ما لا تحمد عقباه .

وما زال في هواجسه هذه حتى الصباح ، فنهض الى عمله كالعادة ، وعند العصر ركب عربة مضى بها الى دار سلمى ليمتع طرفه وسمعه برؤيتها وحديثها ، وكان يرتاح لمجالستها وينسى وهو معها كل متاعبه ومشاغله .

وما كادت المركبة تقف به امام البيت حتى سارعت سلمى الى استقباله وقلبها يطفح سرورا ووجهها يشرق ابتساما ، فلما دخل سليم على اهل البيت وقد ابرقت اسرته ، ثم مد يده الى سلمى مسلما وجلسا يتجاذبان اطراف الحديث وكل منهما لا يرفع نظره عن وجه الآخر ، واهل المنزل فرحون بائتلاف قلبي الخطيبين وبما جمعه الله فيهما من صفات الكمال .

وقالت سلمى له بعد قليل : « ارجو ان تكون قد سررت امس بمشاهدة الزينة في حديقة الازبكية » .

فقال : « الواقع اني سررت بها كثيرا ، ولكن سروري لم يتم لاني كنت اود لو انك كنت معي لنشاهد تلك المناظر البديعة معا » .

فقالت : « ان مايسرك يسرني ، وقد كنت طول الوقت منشرحة الصدر لعلمي ان صدرك سينشرح ولا شك بتلك المناظر » .

قال : « بورك فيك يا عزيزتي ، واني لاحمد الله على ان رأيتكم

جميعا في عافية . على اني كنت اود لو ان التقاليد لم تحل دون ذهابك معي فأزداد سرورا بمصاحبتك » .

قالت : « وماذا تعني بذلك ؟ » .

قال : « اعني ان الناس لا يعلمون بما تم من امر خطبتنا ، فلو انهم رأونا تتنزه معا لأدى ذلك الى تقولهم علينا ، مما لا ارضاه لك » .

فخجلت سلمى وادركت انه يشير الى بقاء خطبتهما في طي الكتمان ، ثم نظرت اليه نظرة كلها حب وحنان ، وقد تضرجت وجنتاها خفرا وحياء واطرقت ولم تتكلم .

فتبسم سليم ، وقد ازداد اعجابا بجمال سلمى وكمالها . ثم وجه خطابه الى والدتها قائلا : « أليس كذلك يا سيدتي ؟ » .

فقالت : « انك معدن اللطف والكمال يا ولدي ، ولكن الناس اكثرهم لا يتورعون عن القال والقيل . ومن الحكمة الا تتيح لهم الفرصة لذلك . وكل آت قريب » .

قال : « هذا هو اعتقادي ايضا ، ولكنني اود ان نذهب للتنزه جميعا في مكان خارج المدينة بمعزل عن الرقباء وتكونين وحضرة العم معنا فنقضي يوما من الايام الجميلة » .

قالت : « نحن لا نتأخر عن القيام بما فيه سرورك » .

قال : « ان سروري لا يتم الا بسروركم جميعا » . ثم حول نظره الى سلمى مستطلعا رأيها فقالت: « انت تعلم ما يسرني ، فاتفقوا فيما بينكم على الموعد الذي يعجبكم وانا رهن مشيئتكم » .

قال : « سنعين المكان والزمان في فرصة اخرى » .

ثم اخذوا في احاديث مختلفة ، وفيما هم في ذلك سمعوا رنين جرس الدار ، ثم دخل حبيب فقاموا جميعا للترحيب به ، فسلم عليهم وجلس يشاركهم الحديث ، ولما سألوه عن والدته وشقيقته قال : « هما في خير

وتهديانكم آزكى السلام ، وكان في عزمهما الحضور الى القاهرة اليوم ، ثم آثرتا تأجيل ذلك الى يوم الجمعة المقبل ، لتقضيا معكم بعض الوقت ، ثم تتوجهان الى بيت الخواجه سعيد ، لاننا تواعدنا مع اسرته على زيـارة الاهرام معا ، ويا حبذا لو شاركتمونا هذه الزيارة » .

فقال سليم : « الحق انها زيارة ممتعة ، ولئن وافق عمي والاسرة على ذلك لنكونن جميعا من السعداء » .

فاستحسن الجميع ذلك الرأي ، وتم الاتفاق على الذهاب الى الاهرام صباح يوم الجمعة القادم ، ثم اخذوا في احاديث اخرى .

* * *

كان حبيب وحده من بين الحاضرين يعلم امر خطبة سلمى لصديقـه سليم ، وقد كان في قلق عليه منذ وقف على حقيقة حاله مصادفة على ضفة النيل . ولذلك سارع بعد خروجه من الديوان الى زيارته في غرفته بالفندق ليرى ما تم له ، فلما لم يجده هناك وعلم انه ذهب الى بيت خطيبته ، لحـق بـه اليه .

وكان يتوقع ان يرى على وجه صديقه شيئا من علامات الاضطراب ، واعتزم ان يعزيه ويسعى في تخفيف كربه ، ولكنه شاهده على غير ما كان يتوقع وكأنه لم يكن في شيء مما كان بالامس ، فعجب لتأثير المحبة في قلوب المحبين ، وكيف انها مع ما يخالطها من الاكدار تكون اكبر تعزيـة لهم . وهكذا خف قلقه على صديقه ، ولكنه بقي معتزما مفاتحتـه في الامر في فرصة اخرى لعله يستطيع مساعدته بشيء .

ولما حان وقت العشاء نهض حبيب مستأذنا في الانصراف لكي يلحق القطار الذاهب الى حلوان بعد قليل ، فودعوه بمثل ما استقبلوه به مـن الاعزاز . وخرج من هناك الى المحطة رأسا ، مؤجلا المرور ببيت الخواجه

سعيد الى فرصة اخرى .

اما سليم فبقي في بيت خطيبته الى حوالي الساعة الحادية عشرة ، وكانت الساعات تمر مسرعة كالسحاب دون ان يشعر بها لفرط سروره بمجالسة خطيبته واستئناسه بحديثها واعجابه بكمالها ، فضلا عما كانت عليه من الجمال وخفة الروح . ثم ودعهم وخرج وقلبه يود البقاء ، ولم ينس قبل خروجه أن يضغط يدها وهو يصافحها مودعا ، فضغطت يده بدورها متمنية له السلامة في الذهاب والاياب .

ولم يكد سليم يخرج من البيت حتى عادت اليه هواجسه واخذ يفكر فيما هو فيه من الارتباك ، فانقبض وجهه وقلبه ، وما كاد يصل الى غرفته حتى وجد بطاقة زيارة متروكة له باسم داود سليمان ، فأخذه العجب لانه لا يعرف احدا بهذا الاسم ، ثم دق جرسا امامه داعيا الخادم ، فلما جاءه سأله عمن اتى بتلك البطاقة ، فقال : « ان صاحبها اتى لمقابلتك ، فلما لم يجدك تركها على ان يعود صباح الغد » .

وبعد ان صرف سليم الخادم ، جلس يكتب الى والدته خطابا يرد به على خطابها ، ولكنه كان مشتت الفكر لا يدري ماذا يكتب ، فكتب سطرين ثم مزق الورقة وعاد فكتب سطرين آخرين فمزق هذه الورقة ايضا واطرق مفكرا وقد اخذ منه الارتباك مأخذا عظيما . وبقي كذلك حينا غير قصير ، ثم نهض دون ان يكتب شيئا فبدل ثيابه وتمدد في سريره محاولا النوم . لكنه بقي مسهدا يتقلب في فراشه الى ان طلع الفجر فغادر الفراش وارتدى ثيابه ، ثم اخذ يشغل نفسه ببعض اوراق القضايا التي وكل فيها .

وفيما هو في ذلك طرق الخادم باب الغرفة ثم دخل وانبأه بقدوم الزائر الذي ترك بطاقته بالامس فأمره بالمجيء به .

ودخل عليه الزائر ، فاذا هو كهل طويل القامة ، افطس الانف ، ضيق العينين ، في فمه اعوجاج ملحوظ واسنانه بارزة ، فرد تحيته بمثلها

ورحب بـه .

ولما استتب الجلوس بالزائر افتتح الحديث في الشأن الذي جاء من اجله فقال : « لقد جئت امس لمقابلتكم فلم يسعدني الحظ بذلك الا الآن ».

فقال سليم :« اهلا وسهلا ، واني ليسعدني ان اكون في خدمتك » .

قال : « اشكرك يا سيدي على هذا الفضل الكبير ، ولكني ارجو ان تجيب لي قبل ذلك طلبا بسيطا » .

قال : « ما هو هذا الطلب ؟ » . قال : « تقسم لتحفظن ما اقوله لك سرا مكتوما عن كل بشر » .

فتبسم سليم والتفت اليه قائلا : « ان في طلبك هذا اهانة لي وطعنا في كرامتي . اذ لا يخفى عليك ان المحامين مكلفون حفظ الأسرار التي يقفون عليها بحكم مهنتهم كما يحفظ الكهنة سر الاعتراف ، فلا داعي لان تكلفني مثل هذا القسم » .

فقال داود : « معاذ الله ، اني لم ارد طعنا او اهانة ، وانا اعلم طهارة ذمتك ولولا ذلك ما جئت اليك مستشيرا ، ولكن الامر الذي جئت فيه يتعلق بالاعراض ، ولذلك طلبت اليك القسم زيادة في الحرص على هذه الاعراض » .

فقال سليم : « ان العادة لم تجر بمثل ذلك قبل الآن ، ولكنني اكراما لخاطرك ولمن اشرت اليهم ، اقسم لك بالذمة والشرف لأكتمن كل ما تقوله لي الآن » .

فشكره داود على ذلك وقرب كرسيه منه ثم اخذ يقص عليه قصته .

* * *

قال داود : « اني من أصحاب الاملاك الزراعية في مديرية الغربية ، ولكن اقامتي بالقاهرة في شارع شبرا قرب منزل الخواجه سليمان » .

فلما سمع سليم ذلك خفق قلبه لان الخواجه سليمان هو والد حبيبته سلمى ، فأصغى الى داود بكل جوارحه ، وواصل هذا كلامه فقال : «وكنت منذ اربع سنوات اتردد الى بيت جاري المشار اليه وتتبادل الزيارات فيما بيننا كعادة الجيران في بلادنا ، وكان له ابنة اسمها سلمى .. » .

فاشتد خفقان قلب سليم ، وازداد اشتياقا الى استطلاع الحكاية فأنصت لسماع تتمة الحديث ، ومضى داود فقال : « وقد آنست في تلك الفتاة لطفا وتهذيبا قل مثالهما كما رأيت منها ميلا الي ، وكنت استأنس بها كثيرا حتى علقتها ومال قلبي اليها » .

وهنا كاد قلب سليم ان يقفز من بين ضلوعه ، وشبت نار الغيرة فيه ، لكنه امسك عن اظهار عواطفه ليقف على نهاية القصة .

فقال داود : « فلما رأيتها تحبني وتظهر لي الميل الشديد تلميحا وتصريحا ، ورأيت اباها يلاطفني ويكثر من دعوتي الى زيارتهم ، لاح لي ان اخطبها منه ، وبقي هذا الامر يتردد في فكري زمنا طويلا خوفا من ان يكون في الامر دسيسة او خديعة ، ولكن الحب اعمى بصيرتي فصممت على خطبتها منه وفاتحته في الامر ، فرأيت منه ميلا شديدا الي ، وقال لي : (ان سلمى تكن لك اضعاف هذا الميل) . فازددت تعلقا بالفتاة وصرت اكثر من التردد الى البيت ، وكنت احيانا اخلو الى الفتاة ونظل الساعة والساعتين نتبادل عواطف الحب ، ولم اكن ارى منها الا حبا وهياما وطالما صرحت لي بأنها لم يعلق قلبها بسواي الى غير ذلك من عبارات المحبة » .

فلم يتمالك سليم عند ذلك عن الانتفاض من شدة التأثر ، وعلا وجهه الاحمرار واحس كأن نارا تتقد في جسمه غيرة وحنقا ، لكنه تجلد حتى يسمع بقية الحديث ، مكتفيا باظهار عنايته بتتبعه .

فقال داود : « ولا اكتمك اني وصلت في حب هذه الفتاة الى درجة ان صورتها لم تكن تفارق ناظري ليلا ولا نهارا ، وظننت نفسي قد بلغت

نهاية السعادة بالحصول عليها . على اني لم اخطبها رسميا لان اباها العجوز سامحه الله قال لي : (ان الخطبة لا بأس من تأخيرها) . ثم طلب مني بعض المال على سبيل القرض ، لاحتياجه اليه في دعوى مقامة عليه ، لا اعلم ما هي وربما كانت مثل الدعوى التي ارجو ان استطيع رفعها ضده بمساعدتك. فنقدته مائة جنيه ، ونظرا الى ثقتي به لم اكلفه كتابة صك بها ، وقد كنت احسبه اشرف رجل على وجه هذه البسيطة كما كنت احسب ابنته اطهر فتاة رأتها عيني . ولكني اضطررت بعد ذلك الى العدول عن خطبة الفتاة لسبب اخجل ان اذكره » .

فاشتعل قلب سليم غيرة وحنقا ، ولم يتمالك عن النهوض عن الكرسي مئة لشدة الانفعال ، لكنه عاد الى عقله وخاف الفضيحة فتظاهر بأنه يبحث عن علبة سجايره ثم تناولها ودفع الى داود سيجارة منها ، واشعل لنفسه اخرى وجلس لسماع الحديث وهو يجاهد نفسه لاخفاء عواطفه .

ولم تخف حالته على داود ، لكنه تجاهل وواصل كلامه فقال : «نعم، انني اخجل من ذكر سبب عدولي عن خطبة الفتاة ، ولا سيما ان الامر يمس العرض » .

فقال سليم : « لا داعي للخجل ، وقد اقسمت لأكتمن السر » .

فتردد قليلا ، ثم قال : « ماذا اقول ؟ يكفي اني دخلت يوما منزل الخواجه سليمان هذا دون ان اقرع الجرس ، فلما دخلت غرفة الفتاة وجدتها جالسة بجانب شاب كنت اعده صديقا للاسرة في هيئة مريبة » .

وهنا يعجز القلم عن شرح حالة سليم عند سماعه ذلك الاتهام الموجه الى حبيبته التي يعتقد فيها العفاف والطهر ، فلم يستطع امساك عبراته ، وغادر الغرفة متظاهرا بأنه يريد حاجة خارجها ، ثم عاد بعد ان مسح دموعه فجلس على كرسيه ساكتا مصغيا ولكن قلبه يتقد غيرة وحنقا .

وتجاهل داود ما لاحظه على سليم ، واخرج منديله فمسح به انفه

وشاربيه وعاد الى اتمام حديثه فقال : « ولما رأيتها مع الشاب المشار اليه في تلك الخلوة المريبة ، لم اتمالك عن الخروج حالا وقد اتقدت نار الغيرة في قلبي ، ورجعت من حيث اتيت وبقيت مدة لا ازور ذلك البيت ، على اني كنت افكر دائما في امر المائة جنيه التي اقترضها مني ابو الفتاة ، واخيرا لاح لي استشارة محام ماهر لرفع الدعوى على الرجل مطالبا اياه بأداء ذلك الدين ، ثم رأيت أن اطالب الرجل اولا ، فلما طالبته اخذ يماطلني ويعدني تارة بالدفع ، ويسألني تارة عن سبب عدولي عن خطبة الفتاة فألفق له بعض الاعذار . واخيرا كشفت له حقيقة ما وقفت عليه من امر ابنته فقال لي : (ان ذلك الشاب صديق الاسرة كما تعلم ، ولا شك في انه هو الذي غرر بالفتاة مستغلا بساطتها ، لكنه لم ينل منها شيئا) . ولما يئس من اقناعي ، ورأى اني مصر على ارجاع مالي الذي اخذه ، انكر انه اقترضه مني . فهل تظن اني اذا رفعت عليه دعوى استطيع ربحها ؟ » .

فقال سليم وقد امسك عواطفه : « لا يخفى على فطنتك ان الدعاوى المالية لا تقوم الا بالبينة ، فهل عندك بينة او شاهد يشهد بذلك ؟ » .

فقال : « اني دفعت اليه المبلغ سرا دون ان يعلم احد بذلك ، ولكن الشاب الذي حدثتك الآن عن صلته بالفتاة ، علم بالامر خلال تردده الى المنزل ، على اني ما اظنه يقبل اثبات هذه الدعوى لانه كان السبب الاكبر بل هو السبب الوحيد لما حصل ، وبناء عليه اقول انه ليس لدي بينة او شهود » .

فاشتغل بال سليم بذلك الشاب واحب معرفة اسمه فقال : « هل تعرف ذلك الشاب الذي اشرت اليه ؟ » .

قال : « هو شاب لا اراه في القاهرة الآن الا يسيرا ، واسمه حبيب » .

فاضطرب سليم عند سماعه اسم صديقه بعد ان سمع ما قيل عنه وعن سلمى ، لكنه تجاهل واجاب متظاهرا بأنه غير مكترث قائلا : « اني

اعرف هذا الشاب معرفة بسيطة ، واذا لم تستطع الحصول على شهادته لا اظنك تستفيد شيئا من رفع دعواك » .

فقال داود : « اما شهادته فأنا واثق بأني ان خاطبته في شأنها فلن يقبل اداءها ، وربما ادعى انه لم يرني قط ولا عرف شيئا عني ، وعلى هذا ارى الاولى بي ان اترك عوضي على الله ، واكتفي بأني تخلصت من الشرك الذي كان منصوبا لي ، واشكر الله اني عرفت حقيقة الفتاة قبل العقد عليها ، ولو كان ذلك بعد الاقتران بها لكانت المصيبة اعظم . والآن لا حاجة بي الى ان اذكرك بقسمك ، لكي تكتم حديثنا هذا عن كل انسان كما وعدت وتعتبر اني لم اقابلك الآن ولا خاطبتك في شيء » .

ثم نهض مودعا شاكرا لسليم حسن مشورته ، واراد ان ينقده اجر هذه المشورة فلم يقبل سليم . فخرج مكررا الشكر ، وترك سليما على مثل الجمر .

وما كاد ينصرف حتى اغلق سليم باب الغرفة وجلس يناجي نفسه وقد اخذ منه الغيظ كل مأخذ فقال : « أهذه حقيقتك يا سلمى ؟ اين عفافك وانفتك ؟ بل اين تهذيبك وادبك ؟ أفي يقظة انا أم في حلم ؟ لا لا . لا اصدق ذلك عنك . ولكن كيف اتهم الرجل بالافتراء ، وما الذي يحمله على الكذب او الايقاع بيننا وهو لا يعرف عني شيئا ، وانما قاده الاتفاق الي ؟ وما اعجب هذا الاتفاق الذي كشف لي امورا كنت عنها غافلا » .

ثم سكت حائرا لا يدري بم يفسر تلك الحكاية ، واخيرا نهض بغتة وقد اتقدت الغيرة في بدنه كالجمر وقال : « آه منك ايضا يا حبيب ، آه من قلب الانسان ما افسده ، اتحب سلمى وتحبك ، ثم تظهران لي بمظهر الاخلاص ؟ آه من هذا الزمان !.. الآن عرفت صدق مقال والدتي ، وانها والله لأصدق مني مقالا واوسع اختبارا » . قال ذلك واخرج كتاب والدته من جيبه واخذ يقرؤه حتى وصل الى قولها فيه :

« لا تغتر يا ولدي بمظاهر البنات فانهن اقدر البشر على المداهنة والنفاق ، وقد يظهرن العفاف وهن بعيدات عنه ، ويبدين الاخلاص وهن اروغ من الثعلب . وفضلا عن ذلك فان الفتاة التي علقتها ليست ممن يليق بك الالتفات اليهن ، وقد سمعنا عنها ممن عرفوها هنا انها قد نصبت مثل هذه الشراك لسواك واخفقت سعيا وخابت آمالها ويكفيني التلميح عن التصريح » .

فلما قرأ هذه العبارة ، اخذ يلعن الساعة التي عرف فيها ذلك البيت ، لانه لم يعد يعرف الراحة منذ عرفه . وحدثته نفسه بأن يتخلى عن سلمى قبل عقد الخطبة ، ولكن نار الحب ثارت في قلبه كأنها تكذب ما بلغه فقال : « لا لا يا سلمى ، انت والله حبيبتي ومنتهى املي ، وقد وهبتك هذا القلب وملكتك نفسي حتى استوليت على كل عواطفي ، ولم ألق منك منذ عرفتك الا كل جميل ، فلا أنثني عن حبك ولا اظن بك سوءا . ولكن ما هذه الحكاية التي سمعتها الآن ؟ أهي محض اختلاق ؟ كلا فقد علمت بها اتفاقا، ولو كان بيني وبين راويها علاقة او معرفة لاتهمته بالافتراء والكذب وقلت انه واش يريد فصم ما بيننا من علائق المحبة . أتحبين حبيبا كل هذه المحبة وتقولين انك تحبينه من اجل صداقته لي ؟ تبا لك وله ! ولكن ... ولكن حبيبا صديقي وقد عرفته منذ نعومة اظفاره ولم ار فيه الا اخلاصا وغيرة ولكن ... ولكن النفس أمارة بالسوء وعين الحب عمياء ، فلا بد لي من التجلد والصبر ، ثم ملاحظتكما ومراقبة خطواتكما وحركاتكما ، فاذا تحقق لدي ما سمعته الآن ... آه آه من الحب ما امره وما احلاه ! لا لا بل هو مر علقم وقد صدق من قال : (أن سوء الظن من حسن الفطن) . فلو اني لم افتح قلبي لك واضع ثقتي فيك ما عميت عن حقيقة حالك وحال ذلك الشاب الذي خدعني بصداقته سنين . ولكن مهلا سوف تريان واری، وكل آت قريب » .

ثم نهض وهو في اشد الانفعال ، وخرج لا يلوي على شيء . وفيما هو في الطريق نظر الى ساعته فاذا الساعة الحادية عشرة ، ففطن لميعاد المرافعة في مجلس الاستئناف . وكان عليه ان يذهب للمرافعة في دعوى وكل فيها عن بعض الناس ، ولكنه رأى انه لا يستطيع ذلك وهو في مثل ذلك الانفعال ، فسار وهو لا يدري الى اين يذهب ، فقاده الاتفاق الى حديقة الازبكية فدخلها وجلس على مقعد بازاء البركة . وكانت الحديقة في ذلك الحين هادئة لخلوها من الناس ، فأخذ يجول بأفكاره فيما سمعه في صباح ذلك اليوم وهو يكاد ألا يصدق انه سمعه في اليقظة لغرابته وبعده من اعتقاده السابق .

ولبث في حيرة تتقاذفه الهواجس وتتلاعب به الظنون ، وهو تارة ينقم على سلمى وسوء طويتها ، وطورا يكذب ما سمعه عنها ويجلها عن مثل تلك الدناءة .

٤

خلوة مريبة

عاد حبيب الى حلوان وهو يفكر في الخطاب الذي تسلمه ويردد في ذاكرته سوابق زياراته بيت الخواجه سعيد وما كان يلحظه في ادما من الحركات والاشارات حتى كادت تنجلي له الحقيقة ، وترجح لديه انها هي التي بعثت اليه بذلك الخطاب ، فاعتزم ان يستطلع ذلك ويتحققه يوم ذهابهم جميعا للتنزه في منطقة الاهرام .

وامضى حبيب ليلته يفكر في ذلك ، دون ان يزور الكرى عينيه . وكانت نفسه تحدثه بأن يتعجل استطلاع الامر فيذهب في الغد الى بيت الخواجه سليمان ، في موعد لا يكون فيه سليم ولا احد غير سلمى هناك ـ وكان لكثرة تردده الى ذلك البيت ، ولما بينه وبين الاسرة من علائق المودة الخالصة لا يستنكف ان يزوره في اية ساعة ـ وهناك يجاذب سلمى اطراف الحديث على انفراد ، لعله يعلم منها شيئا عن ادما يحقق ظنه .

وفي صباح اليوم التالي بكر بالخروج الى مقر عمله على عادته ، وبقي هناك حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم توجه الى منزل الخواجه سليمان ، فلم يجد فيه غير سلمى ووالدتها ، فرحبا به ، واستغربا مجيئه في تلك الساعة . غير ان اللياقة لم تسمح لهما باظهار ذلك الاستغراب ، ثم جلسوا جميعا في قاعة الاستقبال وسلمى وامها بثياب المنزل ، دون ان تستنكفا ذلك ، لما بين حبيب والاسرة من صداقة ترفع التكليف .

وشعر حبيب عقب جلوسه باستغرابهما مجيئه في تلك الساعة ، فأفهمهما انه ذهب لمقابلة الخواجه سعيد للتفاهم معه على خطة الذهاب الى الاهرام واعداد ما يحتاجون اليه في تلك الرحلة ، فلما لم يجده في منزله ، رأى ان يزورهم لذلك السبب نفسه ، فاقتنعتا بذلك ، واخذ ثلاثتهم يتداولون في امر الرحلة .

وبعد قليل تركتهما والدة سلمى معتذرة بأن الطعام على النار وانها لا تثق بالطباخ في اصلاحه ، فقبل حبيب عذرها وقد سر جدا منه . وما كادت تنصرف حتى عاد الى الحديث مع سلمى في شأن زيارة الاهرام ، ثم تطرق من ذلك الى حديث ادما فقال : « اني انتظر صباح الغد بفروغ صبر حتى نذهب في موعدنا هذا ، وذلك لاني احب الذهاب الى تلك الجهة لجودة هوائها وحسن موقعها ، ومما يضاعف سروري ان شقيقتي شفيقة اكثر مني تشوقا لهذه الرحلة ، ولا سيما بعد ان علمت بأنكم ذاهبون معنا

ايضا ، وكذلك اسرة الخواجه سعيد، وهي لم تر الآنسة ادمـا منذ وقت طويـل » .

فقالت سلمى : « ان الآنسة شفيقة خليقة بكل محبة واجلال ، ونحن جميعا نحبها ونجلها للطفها وتعقلها . ولكن لا شـك في ان الآنسة ادمـا اكثرنا انعطافا نحوها ، وهي لا تفتر عن ذكرها وامتداحها » .

فقال : « لقد لاحظت مثل هذا الانعطاف من شقيقتي نحو الآنسـة ادما ، وكثيرا ما ذكرتا بالمدح والثناء والاعجاب بحسن خصالها » .

فقالت « الحق ان الانسة ادما من احسن البنات تهذبا وادبا ولطفا ، كما انها على جانب عظيم من العلم والمعرفة » .

فقال حبيب وقد خفق قلبه وعلا وجهه الاحمرار : « واين تعلمـت كل ذلك ؟ » .

قالت : « تعلمته في مدارس بيروت ، كما تعلمت فن التصوير واتقنت الخـط » .

فقال : « اتقنت الخط ؟ هذا عجيب لان الفتيـات قلما يتقن الخط لقلة استعمالهن الكتابة ! » .

قالت : « الواقع ان خط الآنسة ادما جميل جدا ، واذا شئت فاني اطلعك على خطها في رسالة بعثت بها الي منذ بضع سنين » .

قال وقد استبشر بالفوز : « لا اريد ان اثقل عليك ، بتكليفك البحث عن هذه الرسالة الآن » .

فنهضت قائلة : « لا ثقلة علي في ذلك » . ثم مضت الى غرفتها وجاءته بتلك الرسالة وجلست بجانبه لتريه جمال خط ادمـا ، ثم قـالت له وهي تضحك : « اخشى ان تسخر من العبارات التي تضمنها الخطاب ، ولكننا كنا ما زلنا اطفالا حينذاك » .

فقال : « العفو يا آنسة » .

وفيما هما في ذلك فوجئا بدخول سليم عليهما ، فبغتا وبدا الخجل على وجهيهما ، مع انهما لم يكونا في حالة توجب الخجل ولكنهما لم يكونا ينتظران مجيئه في تلك الساعة .

وكان سليم قد مل الجلوس في الحديقة فحدثته نفسه بأن يزور خطيبته في تلك الساعة على غير المعتاد لعله يستطلع شيئا مما سمعه عنها ، ودخل البيت دون ان يقرع الجرس فاتفق وصوله الى قاعة الجلوس في اللحظة التي كانت سلمى فيها جالسة بجانب حبيب تريه خط ادما في رسالتها اليها ، فرآهما ووجهاهما متقاربان ، وهما ينظران في ورقة امامهما ويضحكان ، فلما رأى بغتتهما ، تحقق صحة ما سمعه عن علاقتهما من داود ولا سيما ان زيارة حبيب للمنزل كانت في وقت غير عادي ، وان سلمى كانت بثياب البيت .

ولا حاجة بنا الى شرح عواطفه عند مشاهدته سلمى وحبيبا في تلك الحال ، فازداد وجهه انقباضا وحدثته نفسه بأن يوبخهما ولكنه امسك وتجلد ، اما خجلا واما تعقلا ، لكنه لم يستطع اخفاء عواطفه .

اما سلمى فانها لبراءتها لم يخامرها شك في اعتقاد حبيبها ، فلما دخل الغرفة خفت لاستقباله مسلمة ومدت يدها اليه مصافحة ، فلما لمست يده شعرت بارتعاشها وبأنها باردة كالثلج ، ثم اخفت الرسالة خوفا من رغبته في استطلاع سبب وجودها معها وذلك ربما يغضب حبيبا .

واما حبيب فحيى صديقه ببشاشة ، لكنه لم يلق منه الا اعراضا .

ثم جلس الجميع وسليم مقطب الوجه ممتقع اللون ، فأدركت سلمى ان اخفاء الرسالة ربما اوجب سوء ظن سليم ، فأخرجتها من جيبها ووجهت كلامها اليه ضاحكة :

« اني ليضحكني تذكر ايام المدرسة يوم كنا نكتب مثل هذا الخطاب الذي كنت اطلع الخواجه حبيب عليه الآن ، وهو من صديقتي الانسة ادما

كتبته الي منذ بضع سنين يوم كانت في المدرسة في بيروت ، وكنا نتحدث عن جمال خطها فلم يصدق انه جميل فأخرجته لاطلعه عليه » .

ثم دفعت الخطاب الى سليم لكي يراه فمد يده وتناوله ، ولم يكد ينظر اليه حتى اعاده اليها ببرود وهو يتكلف الابتسام .

فخجلت سلمى لهذه المعاملة المهينة ، لكنها كظمت عواطفها وسألت سليما عن سبب اضطرابه فقال : « اني متكدر من بعض الامور الشخصية المتعلقة بالعمل » .

فقالت : « ارجو الا يكون في ذلك ضرر عليك يا عزيزي » .

فأجابها وهو ينظر الى نافذة القاعة قائـلا : « لا ضرر هنـاك ان شاء الله » .

قال ذلك وهو يتردد بين عوامل الغيرة والكظم ، فيهم بأن يظهر غضبه ثم يمسكه التعقل خشية سوء العاقبة .

فقال له حبيب وقد جاء بكرسيه الى جانبه : « لا اراك الله مكروهـا يا عزيزي . ما لك منقبض النفس ؟ الا فرجت عنك وتركت المقادير تجري في أعنتها ؟ » . وقد أراد بذلك ان يخفف عنه ، ظنا منه ان انقباضـه بسبب الخطاب الذي ورد اليه من والدته .

فأراد سليم ان يجيبه منتهرا ويوبخه ، ثم تذكر ما بينهما من الصداقة القديمة وما للفتاة في قلبه من المحبة ، وما يتجلى في وجهها من دلائل الوقار والهيبة والتعقل ، فغلبت عليه طيبة قلبه ، واجاب حبيبا قائلا : « اني متكدر من أمر عرضي يتعلق بمهنتي ، وليس فيه ما يوجب الخوف او اليأس » . غير ان لهجته رغم ما حاوله من التلطف كانت تنم عما يعتمل في صدره .

فرأت سلمى ان عليها ان تعزي حبيبها وتواسيه ، فدنت منه وامسكت يده بيد كادت تذوب لطفا ، ونظرت اليه بعينيها الجميلتين مبتسمة وقالت :

« روحي فداك يا عزيزي ، لا يغضبك امر ولا تجعل للكدر بابا للتمكن منك فانك تعلم ان الاعمال في هذه الدنيا تحتاج الى التبصر والصبر ، فلا تستعجل النجاح فلكل شيء وقته . ولا يخفى عليك ان الكدر يضعف الجسم » .

فوقعت هذه الكلمات في اذن سليم موقعا حسنا ، وشعر بأنها ألقت عن صدره حملا ثقيلا من القلق والغيرة ، وكان يحتاج وهو في تلك الحال من التردد الى مثل هذه العبارة التي ساعدته في تخفيف غيظه وحملته على الصبر والتأني في حكمه على حبيبته وصديقه . ولما امسكت يده شعر بمجرى كهربائي بارد تخلل اعضاءه فأخمد جانبا كبيرا مما كان متقدا فيها من نيران الانتقام والغيظ، فغلبت عليه الحكمة واعتزم اخفاء ما به والتربص ريثما يتحقق الامر مرة ثانية وثالثة ، لان ما علمه حتى ذلك الوقت لم يكن كافيا لاصدار حكمه باداتنهما ، كما ان العواطف سريعة الحكم لا تصبر على العقل ريثما يتروى فتحمله على الانتقام من البريء لسرعة حكمها .

فنظر اليها مظهرا البشاشة وقال : « مهما اكن مثقلا بالهموم فاني انساها عند مشاهدتك ومشاهدة عزيزي حبيب ، ولكني كما قلت له مرة اذا تكدرت من امر يصعب علي نسيانه حالا ، فأتقدم اليكما ان تسبلا ذيل المعذرة على ما ظهر لكما مني فان ذلك عن غير قصد مني وسببه ما ذكرت ».

فقال حبيب : « فليبتهج قلبك يا عزيز ولا تحزن ، اننا الآن نستعد للسير الى الاهرام غدا ، وقد جئت الان لهذه الغاية لكي نتفق على ميعاد نسير فيه معا . وتم الاتفاق على ان نبدأ الرحلة في الساعة السابعة صباحا. وسنعد ما نحتاج اليه من العربات ومعدات الطعام وما اليها ، خشية ان يهمل الخدم في شيء من ذلك » .

ثم جاءت والدة سلمى فسلمت على سليم واخذت ترحب به . وكانت قد سمعتهم يتحدثون عن رحلة الاهرام واهمال الخدم فقالت : « قبح

الله الخدم فانهم لا يمكن الاتكال عليهم في امر البيت ، ولا بد لربته من المساعدة في جميع شؤونه » .

فقالت سلمى : « الحق معك يا والدتي ، ولكن خادمتنا سعيدة ماهرة ، ولعل من الخير اصطحابها معنا في الرحلة » .

فقالت : « لا بأس من أخذها معنا » .

وفيما هم في الحديث جاء الخواجه سليمان ، فجلسوا جميعا يتحادثون ثم اراد حبيب وسليم الانصراف فدعوهم الى البقاء لتناول الغداء . ثم وضعت المائدة وتناولوا الغداء معا وسليم لا يزال في شاغل داخلي بما تم له في ذلك اليوم ، وقد عول على مراقبة حركات سلمى .

وبعد الغداء وشرب القهوة استأذن حبيب وسليم وخرجا ، فمضى كل منهما في سبيله وهو في شاغل عظيم .

وكان حبيب قد رأى بين خط الكتاب الذي تسلمه وخط ادما مشابهة كبيرة جدا بحيث كاد يجزم بأنها صاحبة الخطين ، لكنه صبر الى الغد حيث يتقابلان في الاهرام ويستطلع امرها بنفسه . وما زال سائرا حتى وصل الى حلوان فأخبر والدته وشقيقته بموعد الذهاب الى رحلة الاهرام .

واما سليم فسار الى غرفته ، ثم غادرها الى الحديقة حيث قضى فيها بقية النهار ، ثم عاد في المساء الى غرفته فجلس مفكرا فيما سمعه عن سلمى وابيها من داود في الصباح، وعادت اليه هواجسه وانفعالاته ، واخذت تتقاذفه الاوهام ، ثم تذكر كتاب والدته فأراد اخراجه من جيبه لكنه امسك تجنبا لمضاعفة هواجسه ، وبقي برهة يدخن ويفكر حتى غلبه التعب فذهب الى فراشه . وقبل ان يروح في النوم تذكر انه لم يعرف مكان داود حتى يجتمع به مرة اخرى ويستوضحه بعض الامور ، فأسف على ذلك واعتزم ان يغتنم اول فرصة يراه فيها ويسأله عن عنوانه .

٥

في منطقة الاهرام

بكر الجميع في الصباح التالي الى منزل الخواجه سليمان ، ثم جاءوا بأربع عربات ركبوها الى منطقة الاهرام وقد اعدوا كل ما يحتاجون اليه في نزهتهم .

وسارت بهم العربات حتى وصلوا الى الجزيرة وكلهم فرحون بذلك الاجتماع ولا سيما حبيب لانه كان ينتظر ذلك اليوم بفروغ صبر . امـا سليم فكان في العربة مع سلمى ووالديها وكل منهما يسترق النظر الى الاخر ويحاذر كشف سريرته .

وكان ذلك النهار صافي الجو هادئا ، فمرت العربات في طريق الاهرام المظللة بالاشجار تتناغى فوقها الاطيار ، وعلى كل من جانبي الطريق بساتين يانعة تكسوها الاعشاب الخضراء، وتسرح فيها الماشية من البقر والجاموس يسوقها رعاة من الاحداث تكسو اجسادهم خرق بالية ولكنهم فرحون بما رزقهم الله من العيش السهل على ضفاف النيـل الخصبة المرعى الرقيقـة النسيم ، وليس فيهم الا من انعشته نسمات الصباح فأخذ يغني كأنه يشارك الاطيار في تغريدها . اما الماشية فكانت تسرح وتمرح في مرعاها غافلة عن شواغل بني الانسان .

كانت العربات تحمل قلوبا تتقد حبا يخامره في بعضـها تردد ، وفي بعضها الاخر تحسر أو ارتباك ، والآباء والامهات في غفلة عما شب في افئدة اولادهم من العواطف ، والطبيعة فوق كل ذلك تضحـك من ضعف بني الانسان وتستخف بما يستعظمونه لكثرة ما مر بهـا من الاجيال ، ومـا شهدت من الاهوال حتى تساوى لديها الكبير والصغير والحب والبغض .

وما كادت العربات تدخل ذلك الطريق حتى لاحت لمن فيها اهـرام

الجيزة الكبرى من خلال الاشجار ، قائمة كأنها جبال راسيات . فاشتغلت بها افكارهم وطارت اليها قلوبهم وقد خيل لهم لعظمها انها منهم على اقرب من مرمى القوس ، في حين أن بينهم وبينهما مسيرة ساعة او تزيد .

واخيراً وقفت العربات بهم عند مرتفع تعلوه الاهرام الثلاثة كأنهـا جبال منتظمة الهندام ، فترجلوا جميعا ومشوا صعـدا يطلبـون الاهرام وعيونهم شاخصة اليها حتى شغلهم حينا من الزمان لم ينطق خلاله احدهم ببنت شفة . ولما دنوا منها اشرفوا على تمثال ابي الهول القابع على مقربـة منها كأنه الحارس الامين .

وهرع لاستقبالهم هناك كثير من التراجمة والادلاء في ملابس اهـل البادية ، وجعلوا يخاطبونهم بلسان اعجمي ارادوا بـه ان يكون اللغـة الانجليزية ولكنه كان مزيجا منها ومن الفرنسية . وكان هؤلاء لكثرة تردد الافرنج الى الاهرام يحسبون كل زائر لتلك المنطقة افرنجيا ، وقد رجح لديهم هذا الظن لما رأوا السيدات في الزي الافرنجي . على انهم ما لبثوا قليلا حتى علموا ان هؤلاء القادمين ليسـوا من الاجانـب ، اذ سمعوهم يتكلمون باللغة العربية ، فتقدم شيخهم وسألهم قائـلا : « هل لكم في الصعود الى قمة الهرم الكبير ؟ » .

وهنا اعرب سليم عن رغبته في الصعود ، فأوقفه حبيب محذرا اياه قائلا : « اني لا آمن عليك هذا الصعود ، فان في ذلك خطرا كبيرا ، وكم من اناس خسروا حياتهم لتجرئهم على صعود الهرم ، فزلت اقدامهم خلال ذلـك » .

فلما سمعت سلمى ذلك اقشعر جسمها خوفا على حبيبها ونظرت اليه وفي ملامح وجهها ما ينم عن خوفها على حياته ، فتأثر بتلك النظرة تأثـرا شديدا ، ولكنه تذكر حديث داود عنها فانقبض قلبه وظهر ذلك على وجهه فحول نظره عنها مغضبا ، فدنت هي منه تاركة والديها يذهبان الى الجانب

الآخر من الهرم ليتأملا ارتفاعه ومعهما الخواجه سعيد ، ثم التفتت وراءها فاذا بحبيب واقفا الى جانب ادما واخته شفيقه يشرح لهما تاريخ بناء الهرم وهما شاخصتان اليه مشغولتان بما يقول ، فعلمت الا احد يسمعهما اذا تكلمت فقالت لسليم : « الا تخاف الصعود الى قمة هذا الهرم ، وهي على هذا الارتفاع الهائل ؟ » . قالت ذلك وهي ترنو اليه وتلاحظ حركاته .

فقال : « لو كان ارتفاعه اضعاف ما هو عليه ، ما خفت الصعود الى قمته » .

قالت : « ولكنني انا أخاف عليك » .

قال : « وىم تخافين ؟ » .

قالت : « لا اريد ان تعرض حياتك للخطر » .

فصمت ولم يبد جوابا ، وكأنه كان يريد التكلم ويمنعه التردد ، فعادت هي تقول : « لعلك لا تخاف علي اذا حاولت الصعود وربما تزل قدمي فلا اصل الارض الا جثة بلا روح ؟ » .

فلما سمع ذلك منها اقشعر بدنه ، وهاجت عاطفة الحب في قلبه ، وتذكر ما كان بينهما من الاخلاص وغلبت عليه عواطفه فقال : « نعم اخاف عليك خوفا شديدا ، لا من الصعود الى قمة الهرم فقط ، بل اخاف عليك حتى من هذا النسيم اللطيف ، ومن عيون البشر فانها احد من السهام على قلبي ! » .

فعجبت لعبارته الاخيرة اذ لم تر لها محلا ، ولاح لها انها تخفي وراءها شيئا يكنه في ضميره ويود اخفاءه عليها ، فبهتت واخذت تفكر في ذلك ثم قالت متجاهلة : « اذا كنت تخاف علي الى هذا الحد فكيف لا تشعر بأني اخاف عليك ايضا ؟ » .

فازدادت في قلبه عوامل الغيرة والحنق ، وضاق صدره بما يكتمه ، فأخذ ينكت الارض بعصاه متشاغلا ويداه ترتعشان ووجهه يزداد انقباضا.

فابتدرته قائلة : « ما لك لا تجيب عن سـؤالي كأني لا استحـق جوابا ؟ » . قالت ذلك وهي ترنو اليه بعينيها كأنها تقـول له : ما الذي تكتمه ؟ ولماذا الكتمان ؟

فنظر اليها شزرا واراد التكلم فشرق بدموعه؛ فحول وجهه الى السهل الرملي المحيط بالهرم اخفاء لما به .

فلحظت منه ذلك وتساقطت العبرات على خديها وقد امتقع لـون وجهها . ثم مسحت دموعها بمنديلها من حيث لا يراها ، ولكنه التفت اليها بغتة وقد هم بأن يبوح لها بما في قلبـه ، فلما رأى الدمـوع ترقرق في عينيها . امسك . وبقي الاثنان لا يتكلمان كأنهما اصيبا بجمود وكل منهما يفكر في امر ويحاذر ان يطلع الآخر عليه وقد نسيا ما حولهما .

وفيما هما في ذلك اذا بمناد ينادي سلمى ، فبغتا والتفتا الى مصدر الصوت فاذا بأدما تنادي سلمى قائلة : « تعالي يا عزيزتي سلمى واسمعي ما يقوله حبيب افندي » .

فمسحت سلمى دموعها دون ان يشعر بها احد ، والتفتت الى صديقتها متظاهرة بخلو الذهن وقالت : « ماذا يقول يا عزيزتي ؟ » .

وخطت نحوها وهي ما زالت تمسح عينيها بمنديلها متظاهرة بأن بعض الغبار تطاير اليهما حتى دمعتا ، فانطلت حيلتها على ادما وقالت لها حـين اقتربت منها : « يقول حبيب افندي : ان هذه الاهرام قد بنتهـا الاسرة الرابعة من ملوك الفراعنة منذ حوالي خمسة آلاف سنة » .

فقالت سلمى : « قد كنا الآن في مثل هذا الحديث وقال لي سليم : ان ١٢ الفا من الناس عملوا في بنائها » . ثم نـادت سليـما وقالت له : « أليس كذلك ؟ » .

وكان قد مسح عينيه واخفى عواطفه ، لكنه كان يود لو انه بقي مع سلمى على انفراد حتى يبوح لها بما في فؤاده من الشك ، فلما سمعها تناديه

تقدم نحوها مضطرا واجاب بقوله : « لا تعجبوا لما يقال لكم عن قدم هذه الاهرام ، فان ابا الهول الذي تشاهدون قفاه من هنا اقدم منها كثيرا ، وهو من صنع الاسرة الثالثة الفرعونية » .

فتعجبت ادما من ذلك وقالت : « كنت اسمع ان في هذه الناحية مكانا قديما اسمه الكنيسة فأين هو ؟ اني اود ان اراه » .

فقال حبيب : « هو الى جانب ابي الهول » .

قالت : « هل هو كنيسة حقيقية ؟ » .

قال : « لا ، ولكنه هيكل من هياكل المصريين القدماء وانما سمي كنيسة لانه يشبه الكنائس من حيث كبره واتساعه » .

ثم اظهرت ميلا شديدا لمشاهدة ابي الهول والكنيسة ، فقال لها حبيب: « ألا تتمهلين ريثما نشاهد هذا الهرم اولا ونستريح قليلا ثم نمضي الى الكنيسة لمشاهدتها ؟ » .

قالت : « اود مشاهدتها الآن ، واخشى ان يشتد الحر بعد قليل فلا استطيع الذهاب اليها الا بمشقة » .

فاقترح حبيب ان يسيروا جميعا الى هناك ، وبدا انهم موافقون على ذلك ، لكن سلمى قالت : « اني اعرف ذلك المكان وقد شاهدته مرة قبل هذه برفقة والدي » . وقد ارادت بذلك ان تعود الى الاختلاء بسليم ليتما الحديث لانها قلقت لما شاهدت منه .

فالتفت حبيب الى شقيقته شفيقة وقال لها : « هيا بنا يا شفيقة الى الكنيسة مع الآنسة ادما » .

وكان يود لو ان شقيقته لا ترافقهما لكي يخلو الى ادما ويستطلع ما في قلبها ، لكنه تذكر ان شقيقته ساذجة وانه يستطيع التفاهم مع ادما بالرموز والاحاجي دون ان تفطن هي الى ذلك ، ثم مضى معهما حتى اطلوا على ابي الهول من الخلف فاذا هو تمثال هائل يشبه اسدا رابضا ورأسه

رأس انسان ، فداروا حوله حتى وقفوا امام وجهه ، فجعلت ادما وشفيقة تنظران اليه وتتعجبان لكبره وهوله ، وقالت شفيقة لحبيب : « اخبرني يا اخي عن سر هذا التمثال الكبير ، ولماذا جعلوا جسمه جسم اسد ورأسه رأس انسان ؟ » .

فقال : « جعلوه كذلك اشارة الى اجتماع القوة والعقل ، لان الاسد مثال القوة ، والانسان مثال العقل » .

فقالت ادما : « ولكن كيف عرف المعاصرون ان القوم جعلوه كذلك لهذه الغايــة ؟ » .

فنظر اليها حبيب وقد اعتزم ان يستطلع خفايا قلبها وقال : « انهم عرفوا ذلك بقراءة ما كتب عليه . هذا الى ان الانسان المتبصر لا يخفى عليه ان الطبيعة كلها رموز وان لكل رمز معنى . والرجل العاقل يستطيع ان يعرف الغايات بالنظر الى المقدمات ام انت تتصورين ان الانسان العاقل يخفى عليه مثل هذا ؟ » .

قال ذلك ونظر الى وجهها فاذا هي ترنو اليه منتظرة اتمام حديثه وقد كاد الخجل يتجلى في وجهها عند سماعها قوله ، لكنها تمالكت عواطفها . وواصل هو كلامه فقال : « ثم هبي ان الانسان لم يتمكن من فك رموز الطبيعة بوساطة النظر اليها ، فان الكتابة لم تدع سرا مسدولا ولا امرا مكتوما » .

قال هذا ونظر اليها بطرف عينه فاذا بها قد توردت وجنتاها خجلا واطرقت متظاهرة بالتأمل فيما يقول .

فنظر اليها وقال : « ما رأيك يا آنسة ادما ؟ أليس صحيحا ما اقوله؟»

فأجابت وقد ابرقت عيناها قائلة : « ماذا اقــول ؟ ليس لي الا ان اوافق على ما ذكرته من امر الكتابة وما تدل عليه » .

فأعجبته فطنتها وفهم من ردها انها التي كتبت اليه ذلك الخطاب ، ثم

وجه خطابه الى شقيقته قائلا : « أليس كذلك يا شفيقة ؟ » .

فأجابت شفيقة ببساطة قائلة : « ان هذا التمثال مدهش حقا » .

فأدركت ادما انه اراد لفت نظرها الى بساطة شقيقته ، حتى لا تنهيب وجودها معهما وتمضي في الحديث معه ، فنظرت اليه مبتسمة وقد اسرع خفقان قلبها كأنها تقول له : « قد فهمت مرادك » .

ثم تحولوا عن التمثال وانحدروا درجات قليلة الى الكنيسة ، فاذا هي بناء خرب ، لكن بقاياه تدل على عظمه ، واكثره مبني بأحجار الجرانيت الكبيرة ، فلما وصلوا الى باب الهيكل قالت له ادما : « ان هذا الهيكل متقن الصنعة من الخارج ، فهل ترى هو كذلك من الداخل ؟ » .

فادرك مرادها واجابها وقد هاجت عواطفه قائلا : « ان داخله اكثر اتقانا واشراقا من خارجه ، فان الناظر اليه من الخارج يظنه خربا ولكن لو دخلت اليه ونظرت الى داخله لرأيت ما يسرك وربما تفضلين البقاء فيه » .

فقالت وقلبها يزداد خفقانا : « هل يدخله اناس كثيرون ؟ » .

قال : « اؤكد لك انه لم يدخله احد سواك قط ولن يدخله ابدا » .

قال ذلك مشيراً الى قلبه ، ولكن شقيقته لم تفطن الى ذلك وحسبته يتحدث عن الهيكل فقالت : « كيف تقول انه لم يدخله احد قبلها ولا بعدها؟ لعله كان مغلقا ، وسيغلق ثانية بعد ان ندخله الآن ؟ » .

فاستدرك قائلا : « انا اقصد زيارته في هذا اليوم فقط ، لاننا اتينا الى هنا مبكرين فلم يأت احد قبلنا لزيارته ، واكبر الظن الا يأتي احد بعدنا ، اما والدانا فانهم دخلوه قبلا ولا يدخلونه اليوم وكذلك الخواجه سليم والآنسة سلمى » . فاقتنعت شفيقة وسكتت ، واستأنف هو وادما حديثهما وقد تحقق كل منهما ما عند الاخر من العواطف المتبادلة . وكانت ادما اكثر من حبيب سرورا لانها احبته قبلما احبها ، وكانت تخشى ان ترى منه صدودا او اعراضا . والواقع انه كان يرتاح لمجالستها ويلتذ بحديثها لكنه لم يكن يفكر في الاقتران بها ، ولا يشعر بشدة خفقان قلبها كلما جاء

لزيارة ابيها ، ولا بأن الحب تمكن من قلبها ، وصار يزداد تمكنا يوما بعد يوم ، اذ كانت لتعقلها وحسن بصرها بالعواقب تخفي ذلك جهدها ، وتنتظر ان يبدأ هو باظهار المحبة جريا على الغالب في مثل تلك الحال ، فلما طال بها الانتظار ، لم تعد تستطيع صبرا على هذا الكتمان ، ولم تجد سبيلا افضل من كتابة ذلك الخطاب وارساله اليه دون توقيع ، حتى اذا فازت بمرادها وتحققت امانيها لم تعد تخشى التصريح له بما في قلبها . ولكنها لم تستطع ذلك لوجود شفيقة معهما فاكتفت بالتلميح .

وكذلك كان شأنه ايضا ، فانه لما تحقق ظنه وايقن بأنها صاحبة الخطاب وبأنها تحبه الى هذا الحد ، مال الى مكاشفتها ايضا ، ولكنه اكتفى ان اوضح لها بالرموز ان قلبه مكرس لاجلها وانه لن ينظر الى سواها ، واعتبر نفسه بذلك قد ارتبط معها بعهود وثيقة ، واحس انها اصبحت منذ تلك اللحظة خطيبة له .

وحالما تصور ذلك شعر بانقباض داخلي لم يعرف له سببا ، ولكنه كان يلمح في ذلك الانقباض ظلام من الندم ، اذ تذكر حال صديقه سليم وما آل اليه تعجله في خطبة سلمى من غضب والدته .

لكنه عاد فقال لنفسه : « ان ادما تليق بي ، ولا اظن اني اوفق الى احسن منها ولا سيما ان والدتي وشقيقتي يحبانها كثيرا » .

ثم خرجا من الهيكل صامتين وقلباهما يتكلمان ، وشفيقة بينهما مشغولة بالنظر الى ما حولها من الآثار العظيمة. وما لبثوا قليلا حتى وصلوا الى الاهرام حيث كان بقية افراد الرحلة ينتظرون هناك .

* * *

سر سليم وسلمى لبقائهما معا على انفراد ، بعد ذهاب حبيب وشقيقته وادما لمشاهدة الهيكل . وكانت سلمى اكثر سرورا بذلك لقلقها مما لاحظته

على سليم من مظاهر الانقباض ، وتشوقها الى استطلاع سبب ذلك

اما هو فكان لشدة تأثره يود نسيان ما يخالج ضميره من الشك في اخلاصها . ومع شدة رغبته في استطلاع حقيقة ما بلغه عنها كان كثير الميل لتكذيب ذلك واجلالها عنه، مدفوعا بما تمكن في فؤاده من حبها واحترامها. على ان الغيرة كانت تدفعه الى تحقق الامر بنفسه . فلما خلا اليها نظر اليها نظرة تشف عما يتردد في قلبه ويتجاذبه من عوامل الحب والغيرة ، فأجابته بنظرة تتخللها عواطف تنقد محبة رغم ما يسودها من القلق والاضطراب .

واخيرا قال لها : « الى اين ذهب حبيب وزميلتاه ؟ » .

قالت : « ذهبوا الى ابي الهول » .

فقال : « وكيف استطاع الذهاب الآن ؟ » . فلم تفهم مراده وقالت : « وماذا يمنعه من الذهاب ؟ » .

فأطرق ساكنا مترددا بين التصريح والكتمان ، وداخلها الريب في سكوته ، فعادت تسأله : « هل هناك ما كان يمنع ذهابه الآن ؟ » .

فازداد ما عنده من الحيرة والتردد ، وقال : « لا أدري » . فقالت : « ومن يدري اذن ؟ » .

ونظرت الى عينيه كأنما تبحث عما في ضميره ، فلم يسعه الا ان تنهد وقال : « انت التي تعلمين » .

فبغتت وسكتت قليلا تفكر فيما ينطوي تحت هذه الكلمة ، ثم قالت: « ماذا تعني ؟ » .

قال : « لا اعني شيئا تجهلينه » .

فازدادت قلقا واضطرابا ، وعلا وجهها الاحمرار ثم قالت : « أراك تخاطبني بالاحاجي والمعميات ، افصح عن مرادك » .

قال : « هل يخفى عليك فهم ما اريد الى هذا الحد يا سلمى ؟ » .

قالت : « لم افهم شيئا ، ولا اعلم ما يمنع حبيبا من الذهاب مع ادما

وشقيقته لمشاهدة الهيكل . أم تقصد ان ادما غريبة عنه ؟ ولكنه حتى لو لم تكن شقيقته معهما شاب مهذب عاقل كما تعلم، فليس هناك ما يوجب المظنة»

فحمى غضب سليم حين سمع امتداحها حبيبا ، واتقدت في قلبه نار الغيرة وقال : « صدقت انه شاب مهذب وليس هناك ما يوجب اية مظنة » .

فازداد بعجبها وسكتت برهة تردد عبارته في ذهنها لعلها تجد لهـا معنى ، فلما اعياها ذلك قالت له : « ماذا تريد يا سليم ؟ انني استحلفك بحياة المحبة الطاهرة التي بيننا ان تفصح عن مرادك فقد نفذ صبري » .

فرنا اليها بعينين تتقد فيهما نيران الغيرة رغم محاولته اخفاءها وقال : « بالله عليك لا تذكري المحبة الطاهرة ، فهي شيء كان فيما مضى فقط » .

فازداد خفقان قلبها وامتقع لونها ، ونظرت اليـه وقد نفذ صبرهـا فشرقت بدموعها حين ارادت التكلم ، ولم يسعها الا ان تسكت آخذة في البكـاء .

فابتدرها بالكلام وقد كادت دموعها تطفىء نار غضبه قائلا : « كفى الآن يا سلمى ، اني لا اعي ما اقول ، ولا استطيع ان اصرح بأكثر من ذلك عليك انت أن تفهمي ما اعنيه » .

فهمت بالتكلم . ومدت يدها اليه وهي ترتجف فأمسكت يده ونظرت اليه باكية . ولكنه سرعان ما جذب يده من يدها نافرا ، وابتدرها بالكلام قائلا : « لماذا تمدين يدك الي ؟ الا تخافين رفضها ؟ » .

قالت وقد علا بكاؤها : « ما هذا يا سليم ؟ لماذا تخاطبني بمثل هذا الكلام ؟ ما الذي جرى لك وماذا تضمر ؟ اني استحلفك بالمحبة ان تخبرني بحقيقة مرادك » .

فقال وقد اشتد غضبه : « اية محبة تعنين ؟.. دعي ذكر المحبة فقد كفى ما لحق بها » .

فلم تتمالك عواطفها ، وشعرت بتخاذل قواها ، فجلست على حجر

هناك ، وجعلت رأسها بين يديها واخـذت في البكاء والشهيـق حتى كاد يغمى عليها .

فنزلت تلك العبرات على قلب سليم بردا وسلاما ، واخمدت ما كان متقدا في قلبه من نيران الغيرة والحنق ، وعادت اليه عواطفه نحوها ناسيـا ما سمعه منها ، وامسك عما كان يريده من توبيخها وتعنيفها ، وصار ينظر الى ملاك طاهر ، وقد ندم على ما فرط منه من الكلام ، وهم بيدها فأمسكها وانهضها ، فابتلت يده بالدموع التي كانت تتساقط على خديها ، ووقفـت وهي ساكتة تمسح عينيها بمنديلها الذي في يدها الاخرى .

فقال لها : « خففي عنك يا سلمى وكفي عن البكاء ، فلست اطيق ان اراك باكيـة » .

فرفعت يدها عن عينيها ونظرت اليه بطرف قد كدرته الدموع فذبل وتكسرت اهدابه . فوقعت تلك النظرة في قلبه موقع السهم وهاجت فيه عاطفة الحب حتى ترقرقت الدمـوع في عينيه وقال : « عفوا يا عزيزتي ، واعتبري ما حدث كأنه لم يكن ، فاني ما اردت بما قلته الا تجربة محبتك».

فتنهدت سلمى تنهدا عميقا وقالت وهي غير واثقة بصدق ما يقول : « اما زلت في حاجة الى تجربة محبتي لك ؟ ألم تعلم بمكنونات قلبي من قبل ؟ اما والله انك لاول وآخر من طرق قلبي واقام به . فهل عندك شك في ذلك يا سليم ؟ آه ثم آه من قلوب الرجال ما اقساها ! » .

فلما سمع منها ذلك خفق قلبه ، لانه ذكره بحديث داود عنها ، ولكن الحب كان قد تسلط على عواطفه فقال لها وقد وطد نفسه على حبها رغم كل شيء : « كوني كيف شئت وافعلي ما بدا لك ، فاني قد ملكتك هذا القلب تصنعين به ما تريدين » .

فلم يعجبها ما تخلل عبارته من الشك في صدق محبتها وقالت له : « الا تزال ترميني بنبال الكلام المموه يا سليم ؟ قلت لك صرح بمرادك

واطلعني على حقيقة رأيك اذا كنت مرتابا في صدق طويتي او داخلك شك في حبي لك » . قالت ذلك وتنهدت ثم انقطع كلامها وهي لا تقوى على الوقوف لشدة الانفعال ، فحاولت الجلوس على ذلك الحجر فأمسكها بيدها وقال : « كلا يا سلمى ، لست اشك في محبتك لي ، ولا في محبتي لك ، وان قلبي لا يفتأ يحدثني بأنك تكنين لي مثل ما اكنه لك . فثقي بما اقول ، ودعينا من هذا الحديث وهلم بنا لنلحق ببقية الجماعة فانهم ولا شك قد استبطأونا ، ولنقض بقية اليوم في التنزه والترفيه عن النفس، تاركين شكوى الغرام الى فرصة اخرى » .

وانطلقا عائدين حتى اطلا على الفضاء الرملي المحيط بالاهرام ، فاذا بحبيب قد عاد مع شقيقته وادما ، وجلس الجميع على اكمة من الحجارة كأنها اثر هرم صغير كان قائما هناك .

ولاحظت سلمى ان الخادمة جالسة القرفصاء بجانب الاهرام حيث كانا واقفين . وهي توقد نارا لاعداد الطعام الخفيف الذي جاءوا به معهم من القاهرة . فخشيت ان تكون الخادمة قد سمعت شيئا من حديثها مع سليم ، ولكنها استبعدت ذلك ، ومضت معه مظهرة الانبساط حتى وصلا الى مجلس الجماعة فاستقبلوهما بالترحاب . وكانت والدتها تنظر اليهما وهما قادمان وتشكر الله على تآلف قلبيهما لعلمها ان المحبة الطاهرة من ألطف العواطف واعودها بالفائدة على الاسرة والمجتمع .

وبعد قليل فرغت الخادمة من اعداد الطعام ، فأكلوا جميعا . ثم امضوا بقية الظهيرة يخطرون بين الاهرام وابي الهول بين تنزه وحديث وكل منهم يغني على ليلاه .

وكان حبيب ينظر تارة الى حبيبته ادما ، وتارة الى صديقه سليم وخطيبته سلمى ، ويجول بأفكاره حينا فيما وفق اليه من تحقيق ظنه وحينا فيما عرفه من ارتباك صديقه سليم بسبب رسالة والدته وحنقها على الفتاة

التي احبهـا . وكان قد لحظ على وجهي سليم وسلمى آثـار البكـاء والاضطراب ، لكنه تجاهل لعلمه ان تشاكي الغرام لا يخلو من مثل ذلك ولا سيما اذا خامره شيء من المصاعب والمعاكسات .

اما سليم فتجاهل ما سمعه عن علاقة سلمى بداود وحبيب ، ووقر في ذهنه الا صحة لذلك ، ولا سيما بعدما ظهر له من صدق محبة سلمى له وشدة انفعالها ورقة عواطفها ولطيف عتابها .

واما ادما فقد كان ذلك اليوم اسعد الايام عندها ، اذ تحققت آمالها وبلغت امانيها ، ولكنها ودت لو تتاح لها فرصة اخرى تخلو فيها الى حبيب قلبها فتبثه لواعج حبها في صراحة حيث لا واش ولا رقيب .

وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، ركبـوا العربات عائديـن الى القاهرة . ولما بلغوا باب اللوق عرج حبيب وشقيقته ووالدته الى محطـة حلوان ، وواصلت المركبتان الاخريان سيرهما ، بعد تبادل عبارات الوداع.

٦

رسول السوء

كان داود الذي وشى بسلمى وحبيب الى سليم رجلا دنيء الاصل ، اكتسب ثروة كبيرة من تعويضات الاسكندرية زورا وبهتانا ، فابتاع ارضا وبنى منزلا هناك ، ثم جاء القاهرة واقام بها دون عمل الا التردد الى اماكن اللهو . وكان الى دناءة اصله فاسد الاخلاق شديد البخـل رغم غناه ، ولم يكن ليستنكف ان يبيع شرفه وذمته بدراهم معدودة .

وكان مقيما بالقرب من بيت الخواجه سليمان ، وليس في قصته التي قصها على سليم شيء من الصدق الا كونه كان مقيما هناك . فلم يكن يزورهم الا قليلا ، وكانوا يعاملونه معاملة الغريب كلما زارهم لاختلاف المشرب والتربية ، ولم يزوروه قط . على ان نفسه الخبيثة كانت تحدثه بامكان حصوله على سلمى بعد ان فتن بجمالها ولطفها ، ولكنه لم يجرؤ على التصريح بشيء من ذلك ، ولا سيما بعد ان لاحظ اخلاص سلمى لسليم ، واحتقارها له هو وعدم اكتراثها له .

وكان يقيم بالقاهرة شتاء ، ثم يعود الى الاسكندرية فيقيم بمنزله في جهة محرم بك هناك .

واتفق ذات صيف وهو في الاسكندرية ان سكنت في المنزل المجاور لمنزله سيدة من اهل المدينة كانت على شاكلته من حيث دناءة الطبع وخسة النفس وسوء الخلق . فتوطدت العلاقات بينه وبينها ، وكثر تردده لزيارتها، حتى تناقل اهل الحي احاديث لا تسر عن وجود علاقة آثمة بينه وبين السيدة وردة جارته الجديدة .

وكانت وردة هذه قبل انتقالها الى هذا المنزل تسكن منزلا في شارع المسلة قرب محطة الرمل ، بجانب منزل فؤاد ، شقيق سليم ولما كانت السيدة والدة فؤاد وسليم من اطيب الناس قلبا واخلصهم طوية ، فقد خدعتها مظاهر اللطف والرقة والغنى التي كانت تبدو على جارتها واسرتها . وكان لوردة ابنة حسنة الخلقة بارعة الجمال تدعى «اميلي» . تربت على يدي والدتها فاكتسبت منها الدهاء وسعة الحيلة والاستهتار . وتحدث اهل الاسكندرية بجمالها وخفتها وغناها ، ولكنها لم تلق خاطبا حتى جاوزت الثلاثين من عمرها .

فلما تعرفت والدتها الى والدة سليم ، اخذت تظهر لها كل الميل وتبالغ في التقرب اليها ، وكلما اجتمعت بها اكثرت من التحدث بجمال

ابنتها اميلي وحسن تربيتها وكمالها ، وكانت الفتاة بدورها تظهر الوداد والاحترام للسيدة والدة سليم .

واتفق في اثناء ذلك ان عاد سليم من اوربا حيث كان قد توجه اليها لدراسة المحاماة ، فأقام حينا بمنزل اخيه ، واعجبت به الفتاة ووالدتها كثيرا. اما هو فكان خلي الذهن من شواغل الحب لاهتمامه بأمر مستقبله واشتغاله بالمطالعة والتنقيب في الكتب .

على ان ذلك لم يمنع الفتاة وامها من الاحتيال لايقاعه في شباكهما ، واستطاعت وردة اغراء والدته بمكرها ودهائها حتى حملتها على خطبة ابنتها له دون علمه ، على ان تحببها اليه وتقنعه بأن يتزوج بها بعد حين .

ومضت وردة تكثر من تقديم الهدايا لوالدة سليم ، وتبالغ هي وابنتها في اظهار الود والاحترام لها ، حتى بعد سفر سليم الى القاهرة واقامته بها ، وتعدانها بالسعادة الدائمة اذا تم اقتران سليم باميلي .

اما فؤاد ، شقيق سليم فكان مشغولا بمصالحه الخاصة ، ولذلك لم يكن يتدخل في شؤون والدته ، ولا فيما دار بينها وبين وردة وابنتها من الحديث .

وكانت والدته لشدة اخلاصها لوردة لا تخفي عليها شيئا ، فلما كتب اليها سليم من القاهرة بأنه احب سلمى ، واعتزم خطبتها تكدرت وذهبت بالكتاب الى وردة واطلعتها عليه ، فأخذت هذه تقذف في حق سلمى مع انها لا تعرف عنها شيئا وقالت لها : « ان الناس قلما يخلصون لاحد ، وان ولدك سليما يستحق فتاة تليق به ، وسيان عندي تزوج ابنتي ام سواها ، ولكنني لا ارضى له مثل تلك الفتاة ! » .

ثم اشارت عليها بأن ترد على خطابه ذاكرة له ان العادة المتبعة تقضي بألا يتزوج الشاب وفق اختياره هو وحده ، وبأن عليه ان يترك امر اختيار الزوجة لوالدته ، ثم تحذره من المضي في صلته بسلمى .

ولم تكن امه تعرف الكتابة ، فكلفت وردة جارها داود ان يكتب ذلك الكتاب ، فكتبه كما يشاء وبعث به الى سليم .

ورد سليم على والدته بخطاب برهن فيه على صحة رأيه ، واخذ يمتدح سلمى وحسن خصالها ، واستمرت المكاتبة بين سليم ووالدته حينا ، وهو لا يزداد الا ثباتا في الحب حتى كادت وردة ان تيأس من نيل مرامها، رغم ما دسته من الدسائس ، ولفقته من الاقاصيص المختلفة .

فلما اعيتها الحيل خلت الى شيطانها داود ، واتفقت معه على ان يسعى لافساد ما بين سليم وسلمى من العلاقات ، على ان يكون له نصيب من « الدوطة » .

فقال لها : « اني رهين اشارتك ، وليس بيننا فرق فان خدمتك واجبة علي » .

فقالت : « ان الامر لا يخفى عليك ، ولو لم ار في اميلي ميلا اليه ما اهمني امره ، ولا اضطررت الى ان احبه أنا ايضا مجاراة لها » .

ولاحظت في وجه داود انقباضا ، لدى سماعه تصريحها بأنها تحب سليما ، فتداركت الامر . وتكلفت الضحك ، ثم امسكت يد داود وقالت له : « حذار ان تكون قد صدقت اني احبه ، فمهما يكن من الامر ، فان حبي له لا يبلغ نقطة من بحر محبتي لك » .

فضحك داود فرحا ، حتى غارت عيناه الصغيرتان وبرزت اسنانه السوداء ، وكاد يستلقي على قفاه ، ثم نظر الى وردة وربت ظهرها قائلا : « بورك فيك يا عزيزتي . انا اعلم ذلك جيدا ، ولا شك عندي في صدق محبتك لي ، وها أنذا اكراما لعينيك سأسعى جهدي في سبيل بلوغ الغاية التي تريدينها » .

فقالت له وهي تنظر اليه بعينيها نظرات الدلال : « هكذا تكون الشهامة والنخوة ، وهكذا يكون المحبون ، فامض الى القاهرة ودبر الامر

بحكمتك وذكائك ، واني لفي انتظار ما يكون » .

فنهض داود واعدا بالتأهب للسفر فورا ، فصافحته مودعة ووضعت في يده بضعة جنيهات قائلة : « هذه نفقات الطريق » . فقبض الجنيهات وخرج بها مسرورا ؟

ثم اغرت وردة والدة سليم صديقتها بكتابة خطاب اليه تخبره فيه بما يطابق الرسالة التي كلفت بها داود ، فتأثرت والدته الطيبة القلب باغرائها ، وبعثت اليه بذلك الخطاب .

* * *

كانت لوردة خادمة قديمة عجوز اسمها سعيدة تماثلها في المكر واللؤم والخسة ، فدعتها وردة اليها بعد خروج داود من عندها ، وانقدتها جنيهين قائلة : « ان أخلاصك يستحق اكثر من هذه الهبة المتواضعة ، ولكن الايام بيننـــا » .

فعجبت العجوز لهذه العطية على غير انتظار ، وعلمت لدهائها ومكرها ان سيدتها تريد منها امرا ، فهمت بيدها وقبلتها وقـــد انبسط وجهـــها ، واخذت تدعو لها بطول البقاء ، وان يتم الله نعمته عليها بتوفيق ابنتها اميلي الى زوج يسعدها ، فتنهدت وردة وقالت : « انت تعلمين يا سعيدة أني ترملت منذ سنين وليس لي الا هذه الفتاة » .

قالت : « نعم يا سيدتي ، وادعـــو الله ان يطيـــل عمركما ، ويعوض صبركما خيرا » .

فقالت وردة : « اني زهدت الدنيا من اجلها ، فهي تعزيتي الوحيدة في هذا العالم ، ولا يخفى عليك ما هي عليه من الجمال واللطف والدلال ، وقد خطبها كثيرون من خير شباب الاسكندرية ، ولكنها لم ترض بأحـــد منهم ، ولم اشأ أن أرغمها على القبول ، واخيرا رزقها الله بخطيب نـــال

رضاها واعجابها . فكانت فرحتي بذلك عظيمة ، ولكن اولاد الحرام اغروا الشاب بحب فتاة اخرى في القاهرة ، وعبثا حاولت والدته ان تنقذه مـن حب تلك الفتاة » .

فقالت سعيدة مغضبة : « لعنة الله عليها وعلى من اوقعوه في شراكها، ألم تعرفي شيئا عنها يا سيدتي ؟ » .

قالت : « انها تقطن في شارع شبرا بالقاهرة ، واسمها سلمى ، واسم ابيها الخواجه سليمان . ويبدو انها واهلها يشددون الخناق على سليم لكيلا يتركوا له فرصة للتروي والتفكير » .

فقالت سعيدة : « صدق من قال : اولاد الحرام لم يتركوا شيئا لاولاد الحلال ، ولكن صبرا فسأعرف كيف أنقذه منهم باذن الله ، وسأسافر فورا الى القاهرة ولن ارجع الى الاسكندرية الا وهو معي » .

قالت ذلك ومضت الى غرفتها ، فأخذت تعد ثيابهـا تأهبـا للسفر ، وتبعتها سيدتها لتودعها واخذت توصيها بكتمان الامر عـن كل انسان . وبعد ان اعدت سعيدة ما تحتاج اليه من الثياب في صرة ، تناولت شيئا من الطعام ثم ودعت سيدتها وخرجت توا الى المحطة فركبت القطار قاصـدة الى القاهرة ، فوصلت اليها في المساء ، وكانت تعرف طرقاتها لانها ربيت فيها وخدمت في كثير من بيوتها ، فقضت ليلتها في بيت بعض اقربائها ، ثم بكرت في صباح اليوم التالي فارتدت ملاءتها وتبرقعت ، وقصدت الى بيت الخواجه سليمان في شارع شبرا ، واتفق وصولها اليه قبل ثلاثة ايام من رحلة الاهرام السالفة الذكر .

وقرعت الباب ، ففتحته لها والدة سلمى بنفسها وسألتها عما تريد ، فقالت : « اني امرأة مسكينة ليس لي من يعولني وقـد طرقت ابـواب الخدمة في المنازل بوساطة المخدمين فكانوا كلما خدمت في بيت يأخذون نصف اجري ظلما وعدوانا ، والا عملوا على طردي من المنزل الذي اخدم

فيه . واخيرا اعتزمت ان ابحث بنفسي عن عمل اعيش منه ، وما زلت اواصل البحث عن اسرة كريمة طيبة حتى دلني بعض اولاد الحلال على هذا البيت. واني احمد الله على ان وفقني الى بيتكم ، اذ يبدو لي انك سيدة فاضلة كريمة . فاذا رأيت ان اكون خادمة عندك ، فذلك ما اتمناه ، وسترين مني ما يسرك باذن الله » .

وكانت والدة سلمى قد عانت عذابا أليما بسبب الخدم والمخدمين ، وكثيرا ما كانت تطلب من المخدم خادمة وتنقده اجره على ذلك مضاعفا ، ولكنه لا يلبث بضعة ايام حتى يغري الخادمة بالخروج من عندها ، لكي يلحقها بالخدمة في بيت آخر وينال اجرا جديدا . وهذه حالة يشكو منها اكثر اهل القاهرة ولا سيما السيدات لاحتياجهن الى الخدم . وكان في بيت الخواجه سليمان خادمة من هذا القبيل لا تكاد تحسن عملا من اعمال البيت . ولهذا ما كادت والدة سلمى تسمع كلام سعيدة ، مع ما عاينت فيها من الظواهر الحسنة حتى سرت بتلك الفرصة وهرولت الى سلمى واخبرتها بالامر ، فوافقتها على استخدامها بدلا من الخادمة القديمة ، ولكنها قالت لها : « على اني اخشى ان تكون الخادمة الجديدة من المحتالات ، وربما سرقت شيئا من البيت » .

فعادت امها الى سعيدة وسألتها عن اسمها ، فلما نبأتها به قالت لها : « ان العادة جرت يا سعيدة بأن يأتي الخادمات بضمانة ، فهل تستطيعين ذلك ؟ » .

فتنهدت وقالت : « لقد صرحت لك يا سيدتي بما عانيته من المخدمين وضمانتهم ، فلست استطيع ان آتي بضمانة ، ولكن عندي سوارا وقرطا ثمينين فاجعليهما عندك الى ان تتحققي امانتي » .

فاقتنعت بذلك ، وألحقتها بخدمة البيت بدلا من الخادمة القديمة ، فأخذت سعيدة تظهر من المهارة في الخدمة والنظافة ولطف الحديث ما جعلها

موضع اعجاب سلمى ووالدتها ، وحسبتا انهما حصلتا على سعادة لم يحصل عليها احد سواهما .

وكانت سعيدة تمتدح سلمى دائما ، وتبالغ في التقرب اليها واظهار التفاني في محبتها ، فأحبتها سلمى واشارت باصطحابها معهم في رحلة الاهرام .

اما داود فبارح الاسكندرية بالقطار السريع ، وقضى معظم الطريق في اعداد القصة التي قصها على سليم ، ثم عاد الى الاسكندرية وفي ظنه ان قصته مع الخطاب الذي كتبته وردة الى سليم على لسان والدته فيهما ما يكفي لعدوله عن حب سلمى .

وتربص الجميع هناك في انتظار رد سليم على خطاب والدته بعد مقابلة داود ، فمضى اسبوع دون ان يصل اليهم اي شيء عنه . على ان وردة كانت كبيرة الامل في ان تنال بغيتها على يد سعيدة فلبثت تنتظر اخبارها على أحر من الجمر .

* * *

ركب حبيب القطار عائدا الى حلوان مع والدته وشقيقته ، وقد كان في متناه الا يفارق ادما ، على انه اشار اليها عند الوداع بما يدل على انه فارقها مرغما ، وسيلتقي بها عما قريب .

وكانت هي قد احست عند وقوف العربات للوداع عند محطة حلوان، بأن قلبها سينتزع منها ، ولكنها تعللت بقرب اللقاء لان حبيبا تعود التردد على بيت ابيها من حين الى حين .

وبقي حبيب في القطار صامتا سابحا في تيار من الهواجس التي لم يشعر من قبل بمثلها ، لكنه رغم سروره بما تحققه من حب ادما ، كان يشعر بانقباض داخلي لا يعرف له سببا .

ولاحظت والدته صمته وانقباضه فقالت له : « ما لي اراك صامتا يا حبيب بعد أن كنت مسرورا جدا في الاهرام ، هل انت متكدر من شيء؟»

فانتبه لنفسه بغتة وقال مبتسما : « لا يا والدتي ليس هناك ما يكدرني ، بل انا في غاية السرور من نزهة هذا اليوم ، ولا اعلم لماذا يشعر الانسان بعد مثل هذا السرور بالانقباض ، ولعل هذا من قبيل رد الفعل ، وعلى كل حال هذه ليست المرة الاولى التي شعرت فيها بمثل هذا الشعور ، فاني كلما عدت من مجتمع سار ابقى مدة صامتا اراجع في مخيلتي ما شاهدته من المناظر وما سمعته من الاحاديث » .

فقالت شقيقته : « هذا صحيح ، فأنا ايضا اشارك حبيبا في هذا الشعور ، وها انذا كنت صامتة مثله افكر فيما سعدنا به اليوم في رحلتنا اللطيفة ، خصوصا لوجودي مع صديقتي ادما » .

فلما سمع حبيب اسم ادما ، خفق قلبه وعاد الى هواجسه ، فقالت والدته تخاطب شقيقته : « حقا يا شفيقة ان ادما عاقلة لطيفة قريبة من القلب كثيرا ، وقد كنت تمدحينها امامي كثيرا ولكنني عاينت منها فوق ما كنت اسمع » .

فسر حبيب لهذا الحديث، واراد ان يستزيد من معرفة رأي والدته في ادما ، فقال لها : « ألم تعرفيها قبل الآن يا اماه ؟ » .

فقالت : « لا يا ولدي ، ولكني كنت اسمع عنها مدحا كثيرا من شقيقتك منذ كانتا زميلتين في المدرسة في بيروت ، وقد رأيتها قبل اليوم في زيارات سريعة لاسرتها . اما اليوم فقد قضينا معظم النهار معا فرأيت منها لطفا كثيرا وادبا جما ، واعجبني تهذيبها ولطف حديثها ، كما سرني تعلقها بشفيقة وتعلق شفيقة بها » .

فقال : « ان ايام المدرسة تنمو فيها المحبة وتشتد » .

فقالت شفيقة : « صدقت يا اخي ، ولكني احببت ادما اكثر مما

احببت غيرها من رفيقاتي » .

فقال حبيب وقد ازداد سروره لمحبة والدته وشقيقته لادما : « انها حقا غاية في اللطف والتهذيب وجديرة بكل اعجاب وتقدير » .

وكانت والدته اثناء ذلك تفكر في خطبة ادما لحبيب ، فأرادت ان تستطلع رأيه في ذلك ولكنها امسكت عن ذلك لوجود ابنتها معهما على ان تنتهز فرصة اخرى لمخاطبته في هذا الشأن .

وهكذا انقطع الحديث حتى وصل القطار الى حلوان .

٧

كتاب من سلمى

بقي سليم في العربة حتى وصلت الى بيت سلمى ، فاستأذن في الانصراف ، ولكن ابويها ألحا عليه في البقاء لتناول العشاء وقضاء بقية السهرة ، ونظر الى وجه سلمى فاذا هي تلتمس بقاءه ايضا فأطاع اشارة عينيها مذعنا ، ودخل الجميع المنزل والخادمة سعيدة معهم ، وبعد ان غسلوا وجوههم من آثار الغبار الذي تراكم عليها في الطريق ، اخذت سعيدة معطف سليم لتنظفه من الغبار ، ثم تظاهرت بأنها تبحث عن الفرشاة ، ومضت بالمعطف الى غرفة منعزلة ، وهناك اخذت تفتش جيوبه ، فعثرت في احدها بورقة عرفت من لونها وهيئتها انها هي التي كتبها داود اجابة لطلب سيدتها وردة وبعث بها الى سليم على لسان والدته ، فأخفتها في جيبها .

وجلس الجميع يتجاذبون اطراف الحديث بعد العشاء ، وقد سرت سلمى بعودة البشر والملاطفة الى وجه سليم ، وكان قد وطن نفسه على التظاهر بالسرور امامها ، تاركا أمر المستقبل للاقدار .

وفي آخر السهرة انصرف سليم الى الفندق الذي يسكنه ، وبقي طول الطريق مستغرقا في التفكير ، وما زال صوت سلمى يرن في اذنيه وهي تودعه وتنظر اليه في حب وحنان قائلة : « مع السلامة والى اللقاء قريبا » .

واشتدت به هواجسه اذ تصور المصاعب التي احدقت به ولم يدر كيف يتخلص منها ، واشد تلك المصاعب حديث داود عن سلمى وحبيب ، ثم تذكر رسائل والدته وما كتبته اليه اخيرا من اصرارها على تركه سلمى ، وتصور مدى التضحيات التي قدمتها والدته في سبيل تربيته وتربية اخيه ، فآثرت بقاءها ارملة بعد موت ابيهما ، رغبة في راحتهما . وتذكر انها طالما سهرت عليه وتعبت في سبيل اتمامه وتعليمه ، وانها اصبحت اشد تعلقا به بعد زواج اخيه ، ولا شيء يسليها عن ترملها واحزانها الا اهتمامها بمستقبله ، وكيف انها كانت تعد الدقائق والساعات لكي تزوجه وتفرح به وتقيم ببيته لانها كانت تؤثره على شقيقه لذكائه ولطفه . ثم نظر الى ما هي فيه الآن وكيف انها وقعت في وهدة اليأس من جراء مخالفته لها حتى انها ربما تقضي اسى وحزنا ويكون هو السبب في كل ذلك .

فلما تصور هذه النهاية تحركت عواطفه واشتد به الحزن حتى بكى واخذ يناجي نفسه قائلا : « ان هذه المتاعب مصدرها سلمى ، فتركها والتخلص منها ينقذني من جميع هذه الاحزان مرة واحدة ، ولكن آه كيف اتركها وكيف اتخلى عنها وقد ارتبطنا معا برابطة المحبة ، وقد وعدتها وعدا وثيقا بالاقتران ، فماذا يكون من امرها اذا اخلفت الوعد ؟ بل كيف تفعل لو علمت ان هذا الامر قد خطر ببالي ... لا لا يا سليم ... لا اترك سلمى ويجب الا اتركها لئلا اكون سببا لشقائي وشقائها ... ولكنها تحب حبيبا .

آه من هذا الحبيب ! ولكن كيف يمكن ان تحبه وتخون عهدي ؟ » .

ثم صمت برهة وعاد فقال : « اما اذا تحققت انها تحبه فلا يتعب ضميري بتركها ، لكن من يخبرني انها تحبه او لا تحبه .. ولكنني سمعت ذلك بأذني من رجل غريب لا اعرفه ولا يعرفني ، وقد رأيتها بعيني جالسة الى جانبه يضحكان وعلى وجهيهما آثار المحبة ولما رأياني داخلا بغتا وخجلا . أليس ذلك كافيا لاثبات ما سمعته عنها ؟ اذن هي خائنة ... واذا تركتها من يلومني ؟.. سلمى خائنة ؟! لا لا .. سلمى لا تخون وكيف يمكن ان يكون ذلك الملاك خائنا ؟ انها ملاك طاهر نقي وقد عرفت ذلك باختبارها ، انها اطهر البشر ، نعم انها اطهر بنات جنسها ولا يمكن ان تعرف الخيانة والغدر » .

وفيما هو في هذه الهواجس وصل الى باب المنزل وصعد الى غرفته فدخلها واضاء الشمعة واشعل سيجارة وقد ذهب الرقاد من جفنه وضاق صدره . فأراد الجلوس ولكنه احس كأن تلك الغرفة سجن مظلم ، فانقبضت نفسه ولم يستطع الجلوس ، فأخذ يذرع ارض الغرفة وهو سابح في هواجسه يردد تلك القصة في ذهنه ، تارة يغضب وطوراً يغار وتارة يحزن . فأخذت تتجاذبه جوانب الحب والغيرة والحزن والغيظ والحنق واليأس والحنو حتى ضاق ذرعا باحتمال ذلك ، ولم يعد يستطيع البقاء في الغرفة فخرج منها ، ونزل الى الشارع للترويح عن نفسه فنادى مركبة ركب فيها وهو لا يدري الى اين يريد الذهاب ، فسارت العربة في شارع الفجالة وبعد ان مشت برهة سأله السائق عن الجهة التي يريدها فقال : « سر الى العباسية » . فجرت المركبة وهو غافل عن كل شيء حوله ، ولم يجذبه منظر الشارع المضيء بالغاز والاشجار تظلله وتحجب عنه ضوء القمر اذ كانت الليلة مقمرة ، لانه كان مشتغلا بسلمى وحبيب ووالدته عن كل شيء حوله ، ولم ينتبه حتى وقفت المركبة الى جانب المرصد ، فتحول سليم منها الى ذلك

الفضاء الرملي الشاسع الاطراف يتخلله بناء المرصد من جهة وقشلاقات العباسية من جهة اخرى والسكون مستول على الفضاء ، وضوء القمر يغمره والسماء نقية ليس فيها اثر للغيوم .

فمشى بين اشجار السنط المتفرقة على جوانب المرصد ، محاولا التشاغل بالنظر اليها والى ما حوله من الفضاء الواسع ، والسائق ينظر اليه ويعجب من انفراده هناك في منتصف الليل .

واخيرا جلس سليم على حجر وجده خلف شجرة هناك بحيث لا يراه السائق ، واخذ يتأمل حاله ، ويفكر فيما احدق به من الشواغل والعواطف المتضاربة ، وتصور سلمى في تلك الساعة راقدة في فراشها وقد استغرقت في النوم فلا تدري شيئا عن اضطرابه وتردده ، ثم تصور والدته وقد جلست حزينة ، كئيبة باكية ، فارتعدت فرائصه وتساقطت عبراته واخذ في البكاء محاذرا ان يسمعه احد ، وكان لشدة اضطرابه يخيل اليه ان تلك الاشجار اشباح رقباء يرونه ويسمعون شهيقه . وما زال بين بكاء وخوف حتى انهكه التعب فخارت قواه وذبلت اجفانه ، فأسند رأسه الى تلك الشجرة ، وما لبث قليلا حتى اخذه النوم وهو على تلك الحال .

ورأى في منامه كأن سلمى قادمة اليه ، ووجهها يفيض نورا ، وعليها رداء ابيض ناصع تجرره وراءها ، وهي باسمة الثغر ، وعيناها السوداوان تنظران اليه في توسل وعتاب . ولما دنت منه جثت امامه وقالت له والعبرات ملء عينيها : « سامحك الله يا سليم على اساءتك الظن بي ، واني والله لبريئة من تلك التهم ، وما كان لي ان ادنس شرفي او اخون عهدك بعد ان وقفت قلبي وعواطفي على حبك . فهلا اشفقت على هذا القلب الكسير الذي لم يعرف الحب لاحد سواك ؟ » .

فاستيقظ بغتة وقد ارتعدت فرائصه وصاح قائلا : « سلمى حبيبتي سلمى .. روحي وقلبي ، لا عاش من ظن بك سوءا » .

ثم التفت حوله فاذا هو في قفر لا شيء امامه الا الاشجار الشائكة والخلاء الواسع . فندم على يقظته وود لو يعود النعاس الى جفنيه فيرى حبيبته في ذلك الثوب الملائكي ويتمتع بطلعتها الباهرة ، ولكنه لم يستطع فعاد الى البكاء واخذ يناجي نفسه قائلا : « ان خيالك يا حبيبتي اصدق شاهد على اخلاصك ، وبياض ردائك دليل على نقاوة ذلك القلب الذي ما عرفت فيه الا الطهارة والنقاء . قبح الله ذلك الواشي قبيح الوجه. ان وجهه لدليل على ما في قلبه من السوء ، وما انت الا طاهرة لا عيب فيك . آه لو كنت تعودين الي فأتزود منك نظرة ثانية . اني ثابت في حبك ثبات الجبال الراسيات » .

ومرت بذهنه صورة والدته ورسائلها ، ولكن حبه لسلمى طغى على ما عداه . ثم نهض ومضى الى حيث كانت العربة في انتظاره ، وقد اخذ منه برد الليل كل مأخذ . فأحس بالتعب وخشي ان يكون قد اصيب بمرض ، ولكنه عاد فود لو يكون مرضه حقا فيشغله عن تلك الهواجس .

ومضت به المركبة عائدة الى القاهرة وهو يفكر في ذلك ، فتصور انه اصيب بمرض عضال ، وانه اشتد عليه حتى قارب الوفاة ، فأجفل وقال يحدث نفسه : « لا .. لا اريد الموت الآن حتى لا اكون سببا لشقاء سلمى » .

ثم رجع اليه صوابه فرأى انه اصبح عبدا لعواطفه ولم يترك لعقله فرصة للعمل ، فقال مناجيا نفسه : « ما هذا يا سليم ؟ خذ الامر بالصبر ، وتدبر الامور بالحكمة. نعم يجب ان اصبر .

« واصبر حتى يعلم الصبر انني صبرت على شيء أمر من الصبر »

ولاح له ان يكاشف احد اصدقائه بأمره ، ولكنه حار ولم يدر ايهم يكاشف ؟ وتذكر ان مصدر شقائه كان هو حبيب اعز اصدقائه فتأوه وعادت الدموع تنهمر من عينيه ، لكنه تجلد وقال : « من ادراني انه كما

بلغني عنه ذلك الشيطان ؟ اعوذ بالله من شر كل شيطان ! » .

وما زالت المركبة ماضية به حتى بلغت الفندق فنزل منـها ، ودفـع للسائق اجرته ، ثم صعد الى غرفته ودخلها وقد اخـذ التعب والبرد منـه مأخذا عظيما فبدل ثيابه ونام .

* * *

استيقظ سليم في صباح اليوم التالي على قرع باب غرفته ، فنهض وفتح الباب فاذا بخادم الفندق يحمل اليه كتابا ليس عليه خاتم البريد قائلا: « جاءت بهذا الخطاب لك منذ ساعة امرأة عجوز ، وقد انصرفت بعد ان اوصتني بأن اسلمه اليك حين تستيقظ » .

فأخذ سليم الكتاب ، وما كاد نظره يقع على العنوان حتى اختلـج قلبه في صدره . لان الخط الذي كتب به يشبه خط سلمى ، فدخل الغرفة وفض الخطاب فاذا هو بخطها وعليه توقيعها . فازداد خفقان قلبه ، وجلس على سريره واخذ يقرأ الخطاب ، فاذا فيه :

« حبيبي ومنية فؤادي سليم

« اكتب اليك هذا الخطاب ولعله آخر ما اكتب اليك . وهـذه هي يدي ترتجف ، وهذا قلبي يخفق ، بينما دموعي تتساقط على الورق ، وانا في حال لم اشعر من قبل بمثلها . ولكنني استحلفـك بما اكنه لك من محبة طاهرة خالصة من كل دنس ان تحفظ ما تقرؤه سرا لا يطلع عليه سواك ، وان تعـيره اذنا صاغية وتعتبره صادرا عن قلب يتقد حبا واخلاصا . قلب لم يكن يعرف الخفقان قبل ان عرفك ، ولا عرف القلق او السهاد الا منذ حللـت فيه .

« انني اكتب اليك الآن وقد انتصف الليل وهجع الناس مطمئنين ، وانا وحدي الساهرة المعذبة اسيرة القلق والاضطراب .

« واني لاشكر الله على ان وقفت اخيرا على سبب متاعبك ، بعد ان اخفيته علي كرما منك ورحمة بي . نعم اشكر الله على اني عرفت الداء وصرت قادرة على وصف الدواء ، وكما انك تحملت العناء في سبيلي ، يجب ان اتحمل في سبيلك مثل ذلك العناء .

« لقد وقع في يدي اتفاقا خطاب والدتك اليك في شأني ، وقد فهمت منه انك تقاسي امورا مضنية من اجل حبي ، وتكافح مكافحة الابطال لكي تفي بعهدك لي ، فأكرم بك من محب صادق وصديق مخلص .

« اما التهم الموجهة الي في ذلك الكتاب ، فلا اريد ان ابين بطلانها الظاهر ، ولكن اكتفي بأن اقول : (ان والدتك طيبة القلب وقد عانت كثيرا في سبيل تربيتك وزهدت مباهج الدنيا من اجلك ، ووضعت كل آمالها فيك ، فأقل ما تنتظره منك ان تكون تعزيتها في شيخوختها) .

« ولا شك في انك ان اصررت على عزمك وخالفتها ، ستكون سببا لشقائها ، ولما كنت اعلم ان العهود التي بيننا هي مصدر متاعبك، لاعتبارك اياها عهودا مقدسة لا يسمح لك شرفك بنكثها ، واكرم به من شرف أثيل ، فقد لاح لي ان اكتب اليك مذكرة اياك بأن الضرورات تبيح المحظورات . ولاقول لك وكلي اسف اني قد رأيت من الواجب علي ان اجعلك في حل من تلك العهود ، لتكون حرا تختار لنفسك الزوجة التي ترضيك وترضي عنها والدتك .

« فنحن منذ الآن ، كما كنا قبل عشر سنين : لا عهود بيننا ولا روابط .

« آه يا سليم . اني اكتب هذا وقلبي يقطر دما ، ويداي ترتجفان ، وعيناي لا تريان ما اكتب لما حال بينهما وبين هذا القرطاس من الدموع . ولكن عزائي الوحيد اني اضحي في سبيل راحتك وسعادتك .

« فاذا قرأت هذا فبادر بالكتابة الى والدتك جابرا كسر قلبها ، وانها

لأحق مني بالرثاء . وقد يهون عليك ان تعود بتصوراتك الى ما كنت عليه منذ عشر سنين يوم لم يكن لسلمى صورة في ذهنك . اما والدتك فلـن تستطيع نسيانها ولا يليق ذلك بك ، وهي التي حملتك وارضعتك ووقفت حياتها على تربيتك . وثق بأني لذلك احبها وأؤثر راحتها على راحتي .

« ولا بد لي قبل الختام من ان اودعك الوداع الاخير فربما لا اراك بعد الآن ، وان كانت صورتك لن تبرح هذا القلب الذي ملكتك وحدك اياه . وحسبي ان تذكرني في ساعات صفوك سواء أكنت بين الاحياء ام بين الاموات ، فاني على الحالين لن انسى هواك ، وسأبقى الى الابد احـب محبيك وابغض مبغضيك ، وارجو ان تصفح عن جرأتي هذه ، ودم سعيدا سالما للمخلصة الوفية .... سلمى » ..

وما انتهى سليم من قراءة الخطاب حتى كان قد بلله بالدموع واشتد به الوجد والحزن فاستلقى على السرير واطلق لنفسه عنان البكاء . وكان وهو يقرأ الخطاب قد لاح له ان يتفقد خطاب والدتـه الذي اشارت اليه سلمى ، ولكن الحزن والهيام انسياه ذلك ، فبقي ممعنا في النحيب حتى جفت دموعه وجف ريقه في حلقه وكاد يختنق . ثم احس بقشعريرة فالتحف بالغطاء وكان لا يزال متعبا لطول سهره بالامس وشدة الهيام وكثرة البكاء. فأخذته سنة من النوم .

* * *

كانت والدة حبيب قد لاحظت ميله الى ادما ، فسرها ذلك وانتظرت حتى انتهوا من تناول العشاء بعد عودتهم الى المنزل في حلوان ، ومضـت شفيقة الى فراشها عقب العشاء كعادتها ، لانها كانت خليـة البـال ساكنة العواطف لا هم لها الا مساعدة والدتها في تدبير امر البيت ، ثم خلت هي

الى حبيب واخذا يتجاذبان اطراف الحديث وكل منهما يفكر في ادما .

واخيرا قالت له وقد رأته صامتا كأنه يفكر في امر : « ما لي اراك مشغول البال يا حبيب ، لعلك تشكو من شيء ؟ » .

فانتبه لنفسه وقال لها : « لا يا اماه ، لست اشكو شيئا ، وانا في خير وعافية بفضل رضاك والحمد لله » .

فقالت : « دمت سالما يا ولدي ، وعسى الله ان يتم نعمته علي وعلى شقيقتك فنفرح قريبا بتوفيقك الى ابنة الحلال التي تسعدك » . قالت ذلك ونظرت اليه لتلاحظ ما يبدو منه . وكان كلما خاطبته في امر الزواج قبل ذلك اليوم ، حاول تغيير مجرى الحديث ، واقناعها بأن الزواج متعب، وبأنه سعيد بحياته معها ومع شقيقته . لكنه في هذه المرة بقي صامتا ، ولم يدر كيف يجيب .

لقد كان بالامس خالي القلب ، لا هم له الا اتمام عمله ، ومرضاة والدته وشقيقته ، يزجي ساعات فراغه في التنزه او المطالعة والكتابة والحديث . اما اليوم فأصبح مشغول الفؤاد بعواطف الحب والشوق والهيام .

وقلقت والدته لصمته واطراقه فقالت له : « ما الذي يشغل بالك يا بني ؟ قل ولا تخف علي شيئا ، ألست والدتك ؟ » .

فازداد ارتباكه ، وخجل من التصريح بما يخالج ضميره ، فقال : « قلت لك اني في خير ، ولا شاغل لي ولكنني افكر فيما رأيناه اليوم في منطقة الاهرام من المناظر البديعة » .

قالت : « ولكن وجهك منقبض ، ولا شك في انك تفكر في شيء آخر لا تريد ان تصرح لي به ، ولا ادري لمن تصرح بشكواك غير والدتك الحنون ؟ » .

وعبثا حاول الدفاع عن نفسه ، ورأى والدته قد علا وجهها الانقباض والحزن وكادت تبكي ، فقال وهو بين الاحجام والاقدام : « اذا كان في نفسي ما اخفيه على جميع الناس، فلن اخفيه على والدتي طبعا » .

فهمت به وضمته الى صدرها وقبلته والدموع تتساقط من عينيهـا لفرط تأثرها ، فقال حبيب : « اطمئني يا اماه فان ما في نفسي لا يدعو الى القلق بل هو مدعاة لفرحك واغتباطك والحمد لله » .

فأشرق وجهها بشرا ، وان ازداد شوقها الى استطلاع ما عنـده ، وقالت له : « اذن قل لي يا حبيبي ، ام انـت لا تريـد ان تفرحني ؟ » . ونظرت اليه مبتسمة .

فابتسم ايضا وقال : « انت تعلمين ان اول شيء اطلبه في هذه الدنيا انما هو فرحك ورضاك » . قال ذلك وسكت وقـد صبغت وجنتيه حمرة الخجـل .

فقالت : « صرح بما في قلبك يا حبيب » .

فقال : « ان ما في قلبي ليس يخفى عليك ، لانـه كان في قلبك من قبـل » .

فقالت وقد ازداد وجهها اشراقا لتحقق ظنها : « لعلك اعتزمت ان تتزوج ، واقتنعت برأيي ؟ »

قال : « نعم يا اماه ، وهناك ما يسرك اكثر من ذلك » .

فقالت : « هل تعني ان اختيارك وقع على فتاة تعلم حبنا واجلالنا لهـا ؟ » .

قال : « نعم يا اماه ، لقد احببت ادما التي احببتها انت وشقيقتي » .

فابتهجت وغلب عليها السرور حتى دمعت عيناها وهمت به فقبلتـه وقالت : « الآن تمت سعادتي يا ولدي ، وهذه هي الساعة التي قضيت

عمري في انتظارها ، فأشكر الله على ما دبره بحكمته من هذا التوفيق » .

فتنهد حبيب وقال : « لكن هل المسألة موقوفة على رضائنا نحن فقط ؟ أليس جائزا الا توافق ادما ؟ » .

فقالت : « انني واثقة من موافقتها ، فان من كانت مثلها يغلب ان تميل الى من كان مثلك ، ولاسيما انكما متوافقان في المؤهلات والميول » .

فعاد حبيب الى تعقله وفكر في امر مستقبله ، وتذكر انه كان منذ حين يخشى استغناء الحكومة عن خدمته ، فقال لوالدته : « هبي انها وافقت ، أفلا ترين ان زواجها بموظف مثلي معرض للفصل كل يوم ، مما يعرضها للخطر ؟ » .

قالت : « ان الله هو الرازق يا ولدي ، وهو يرزق الموظفين وغيرهم. ثم انك الآن لست في حاجة الى أكثر من اعلان الخطبة ، والى ان يحين موعد الاقتران يفعل الله ما يشاء » .

فلم يقتنع حبيب بكلام والدته ، ولكن حبه لادما جعله يوافق دون اقتناع .

فقال : « صدقت يا اماه ، وما دام الامر كذلك ، فان اتمامه سهل باذن الله . ولكن امهليني قليلا قبل أن تعلن الخطبة لكي اعد لها عدتها » .

فقالت : « افعل ما بدا لك ، ولنحفظ هذا الامر مكتوما حتى يتم باذن الله » . ثم ذهب كل منهما الى فراشه ، وبقي حبيب حتى اقترب الفجر مسهدا يفكر في ادما وخطبته لها ، وفيما دار بينه وبين والدته في شأنها . وكان على شدة تعلقه بها يشعر باحجام داخلي وتخوف من الاقدام على خطبتها ، فأخذ يبحث عن وسيلة لعلاج ذلك الامر ، ولما اعياه البحث دون نتيجة ، قرر ان يكاشف بأمره صديقه سليما ، لعله يشير عليه بالعلاج المفيد.

٨

كشف السر

نهض حبيب من فراشه في صباح اليوم التالي وهو ما زال قلقا حائرا، ثم استقل القطار الى القاهرة ، حيث توجه الى مقر منصبه ، وبقي يعمل حتى الساعة الثانية عشرة ، وانتحل عذرا ابداه لرئيسه ، فسمح له بالخروج من الديوان قبل الميعاد المحدد .

ومضى لفوره الى مكتب سليم ، فعلم انه لم يحضر اليه في ذلك اليوم، فقلق عليه وانطلق الى الفندق الذي يسكنه فوجد باب غرفته مفتوحا ، وما كاد يدخل حتى وجده ممددا في سريره وقد استغرق في النوم ، فعجب لرقاده حتى تلك الساعة ، ولاحت منه التفاتة فاذا بورقة ملقاة على السرير بجانب سليم ، ولاحظ ان خطها يشبه خط سلمى وكان يعرفه ، فازداد تعجبه واراد ايقاظ سليم ، لكنه آثر التريث حتى يرى ما في تلك الورقة ، فتناولها ويده ترتجف لعلمه بما في الاطلاع عليها من منافاة للآداب العامة ، لكنه برر فعلته هذه بأنه على علم بأمر سليم مع والدته بسبب سلمى ، وبأن اطلاعه على الورقة بغير علمه قد يعاونه على أن ينفعه بشيء .

ولكنه خشي ان يستيقظ سليم فجأة فيراه وهو يقرأ الورقة ، فأعادها الى حيث كانت بجانبه على السرير ، مكتفيا بالنظر اليها وهو واقف بازائه فوقعت عينه على الفقرة التي ذكرت فيها سلمى انها تحل سليما مما بينهما من العهود ، وانها تفعل ذلك مضحية بقلبها وسعادتها في سبيل انقاذه من تردده وحيرته بينها وبين والدته . ولم يستطع لاضطرابه ان يقرأ بقية ما في الورقة ، ولكنه فهم مضمونها ، واعجب كل الاعجاب باخلاص تلك الفتاة وتضحيتها .

ثم لاح له ان سليما قد نام والرسالة في يده وباب الغرفة مفتوح عن غير قصد منه ، وهو لذلك قد يغضب ويخجل اذا استيقظ ورآه بجانبه . فتقهقر خارجا من الغرفة وهو يحاذر ان يحدث صوتا يوقظه ، وكان خدم الفندق مشغولين بمهامهم فلم ينتبهوا لدخوله وخروجه ، ولكنه خشي ان يدخل احد غيره غرفة سليم ويرى مثل ما رأى ، فأغلق الباب وراءه وانسل راجعا من حيث اتى وهو يفكر في امر صديقه ومتاعبه ، وقد نسي ما جاء من اجلـه .

ولم يشأ ان يرجع الى حلوان قبل أن يراه ثانية ويفهم منه شيئا عن حاله . فتوجه الى مقهى قريب وجلس فيه ساعة وهو على مثل الجمر ، ثم عاد الى غرفة صديقه وطرق الباب ، فسمع سليما يقول بصوت ضعيف : « ادخل » ففتح الباب ودخل فاذا بسليم ما يزال في سريره وقد كلل العرق وجهه وتوردت وجنتاه كأنه محموم .

وما كاد سليم يشاهده حتى هاجت عواطفه واشجانه ، فدمعت عيناه وهو يرد تحيته في صوت ضعيف مضطرب حزين ويشير اليه بأن يجلس بجانبه . فانفطر قلب حبيب لهذا المنظر المؤثر ، وترقرقت الدموع في عينيه، ثم انحنى على صديقه في سريره وامسك يده يجسها فاذا هي تتقد سخونة، فعلم انه مصاب بالحمى ، لكنه تجاهل وقال له : « ما لي اراك في الفراش يا عزيزي حتى هذه الساعة ؟ هل تشكو من شيء ؟ » .

فقال : « لا شيء يا عزيزي الا اني اشعر بانحطاط قواي وارتفاع حرارة جسمي ، ولعلي مصاب بالحمى » .

قال : « لا بأس عليك ، وهل شعرت بذلك اليوم فقط ؟ » . فقال : « نعم ، ولكني شعرت امس ببعض التعب وارقت قليلا ، فأصبحت اليوم كما ترى ولم استطع الخروج ، ثم اشتـد بي التعـب وشعرت بالحمى فأخذتني سنة من الكرى ولم افق الا منذ قليل » .

وتذكر سليم كتاب سلمى ومجيء حبيب اليه في تلك الساعـة على غير المعتـاد .

ولاح له ان العبارات التي قرأها في كتاب سلمى ، رغم ما تتجلى فيها من الشهامة وعزة النفس ، لا تخلو من الاحتيال ، ولعل سلمى هي التي أرسلت له حبيبا ليستطلع فكره واثر ذلك الكتاب في نفسه .

على انه ما لبث قليلا حتى طرد هذه الخواطر من مخيلته ، مستبعدا تواطؤ سلمى وحبيب ضده ، ثم حاول جهده اخفاء ما يعتلج في صـدره من الغيرة والشك ، وبقي صامتا متعللا بانحراف صحته .

اما حبيب فراح ينظر اليه نظرة المحب الصادق المخلص الذي يفتدي اصدقاءه بنفسه ، وحدثته نفسه مرارا بأن يستطلعه حقيقة حاله ، لكنـه خشي ان يذكره بأمر يود نسيانه لما هو فيه من المرض .

فلبثا حينا صامتين وكل منهما مشغول بهواجسـه ، ثم قال حبيب : « كيف حالك يا عزيزي ، لعلك احسن الآن ؟ » .

فقال سليم بصوت مختنق : « احس صداعا شديدا في رأسي وكأن نارا تتقد في جسمي » .

فقال : « هل ادعو لك الطبيب ؟ » .

قال : « لا ارى حاجة الى الطبيب الآن ، ولكن ربما احتـاج اليه بعدئـذ » .

قال : « هل ادعو الخادم ليأتيك بشيء من المرق او شراب الليمون ، كي تبل معدتك » . قال : « لا بأس من ذلك » .

فدعا حبيب الخادم وامره باحضار قدح من شراب الليمون ، فلمـا جاء به تناوله سليم بعد ان انهضه حبيب واسنده جالسا في السرير ، وشرب جانبا منه ، ثم وضعه على المنضدة المجاورة للسرير وعاد الى التوسـد والعرق قد بلل ثيابه .

وهنا اشار عليه حبيب بأن يغير له ملابسه المبتلة ، فقبل ، وشعر على اثر ذلك ببعض الراحة ، فمضى يجاذب حبيبا اطراف الاحاديث ، ويجاهد لابعاد الهواجس التي عاودته ، في شأن علاقة حبيب بسلمى . وكلما نظر الى حبيب ازداد غيرة وحيرة وتفكيرا في سبب مجيئه في تلك الساعة على غير المعتاد ، وعقب وصول كتاب سلمى . وما زالت هذه الهواجس تلح عليه حتى تمكن منه الاعتقاد بتواطؤ حبيب وسلمى ضده فأراد ان يحتال لتحقق ذلك ، وفاجأ حبيبا بأن قال له : « أليس غريبا ان تجيء الي اليوم على غير المعتاد ، فتجدني في هذه الحال ؟ فهل ترى كان مجيئك اتفاقا ، ام ان قلبك حدثك بأني مريض ؟ » .

فقال حبيب : « الواقع اني لم يخطر ببالي ان تكون مريضا ، وقد فارقتك امس عند عودتنا من رحلة الاهرام وانت في عافية وسرور ، وقد جئت اليك اليوم مصادفة ، معتقدا اني سأجدك معافى مسرورا كما تركتك»

ولم يشأ ان يذكر سبب مجيئه ، لئلا يقوده الحديث الى ذكر سلمى لعلاقتها بأدما فيثير بذكرها اشجان المريض .

ولكن تكتمه هذا رجح ظن سليم ، اذ كيف يمكن ان يكون مجيئه لزيارته في غرفته مصادفة ، مع علمه بأنه لا يكون بها في مثل الوقت الذي جاء فيه ؟ وعلى هذا وقر في ذهنه ان حبيبا يحتال عليه ولم يصدقه ، ولكنه تجاهل وكظم عواطفه مؤثرا الصمت .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر احس حبيب بالجوع ، فاستأذن سليما في الانصراف ، ومضى الى احد المطاعم فتناول غداءه وفكره ما زال مشغولا بأمر صديقه وخطيبته . واخيرا رأى ان يتوجه الى منزل الخواجه سليمان لعله يستطيع الوقوف على بعض ما غمض عليه من امر سلمى وسليم، وكيف وصل اليها كتاب والدته اليه .

واستقبلته الاسرة مرحبة ، ولكنه لم ير سلمى بينهم فسألهم عنها

فقالت والدتها : « انها شعرت ببعض التوعك هذا الصباح ، فبقيت في الفراش » . فاكتفى بأن تمنى لها عاجل الشفاء ، ولم يذكر اي شيء عن سليم لئلا يشغل بالهم عليه . وبعد ان قضى عندهم بعض الوقت ودعهم وانصرف الى محطة باب اللوق حيث استقل القطار الى حلوان ، عائدا الى منزله ، فاستقبلته والدته ولاحظت على وجهه آثار الانقباض ، فقلقت وخافت ان يكون لذلك سبب يتعلق بأدما ، فابتدرته بالسؤال عن سبب انقباضه ، فلما اخبرها بأن صديقه سليما مريض ، سألته في لهفة : « وماذا به يا ولدي شفاه الله وعافاه ؟ » .

فقال : « اصابته الحمى ، وقد خفت حدتها قليلا والحمد لله حين فارقته منذ قليل » .

قالت : « هل تركته وحده في غرفته ؟ » .

فقال : « نعم يا اماه وهذا ما يقلقني عليه ، اذ ليس عنده من يقوم بخدمته » .

قالت : « كيف تتركه وحده وهو غريب لا اهل له في القاهرة ، ولو ان والدته علمت بمرضه لسارعت اليه كي تخدمه وتمرضه ، ولكنها بعيدة عنه وا أسفاه ! » .

قال : « لا شك انها لو علمت بمرضه لجاءت من الاسكندرية على عجل ، ولكن لا داعي لازعاجها بنبأ مرضه ، وعلينا نحن قياما بواجب الصداقة ان ننظر في امر خدمته وتمريضه حتى يتم شفاؤه باذن الله » .

قالت : « صدقت يا بني ، هذا واجب علينا ، وارى اذا عاودته الحمى غدا ان ندعوه ليقيم معنا بضعة ايام ريثما ينقه منها » .

قال : « غدا أذهب اليه لتدبير الامر والاتكال على الله » .

قالت : « سأذهب معك ليطمئن قلبي عليه ، فهو بمثابة ولدي . ولكن هل علمت اسرة الخواجه سليمان بمرضه؟ » .

قال : « لا ، وكنت عازما على ابلاغهم ذلك ، لكني وجـدت سلمى مريضة ايضا فلم اخبرهم به خشية اشتداد مرضها ، لانها مخطوبة له كما تعلمين ، وهي تحبه محبة عظيمة » .

قالت : « اذن نذهب اليه نحن غدا كما اتفقنا » .

* * *

كانت الخادمة العجوز سعيدة قد ادركت في الايام القليلة التيعاشرت فيها سلمى انها عزيزة النفس أبيتها ، لا ترضى بالذل ولا تحب التزلف ، وايقنت انها اذا اطلعت على ما كتبته والدة سليم اليه في شأنها فلا بد من ان تضحي بقلبها في سبيل الابقاء على محبة امه له ورضاها عنه .

وكانت قد عرفت مضمون الكتاب قبل مجيئها من الاسكندرية ، لان سيدتها وردة هي التي كانت تتولى امر كتابة الخطابــات الى سليم على لسان والدته ، بوساطة داود . وقد اجتمعت بهذا في القاهرة فأخبرها بمــا فعله مع سليم ، واعتقدت ان الطريق قد مهد للتفريق بينه وبين سلمى . ثم انتهزت فرصة تنظيفها معطف سليم حين وجوده في المنزل عقب رحلــة الاهرام ، وسرقت منه خطاب والدته لكي تطلع سلمى عليــه ، ثم ذهبــت بالخطاب الى غرفة سلمى وألقته خفية بجانب سريرها . فلما أوت اليــه سلمى بعد العشاء ، لمحت الخطاب فتناولته وقرأته ، وادركت انه سبــب كدر سليم . وقضت ليلتها مسهدة تفكر في امره ولا تدري ماذا تفعل ، ثم غلبت عليها طيبة قلبها وعزة نفسها ، فكتبت الى سليم ذلك الخطاب الذي احلته فيه من خطبتها ، وبعثت به مع خادمتها سعيدة .

على انها شعرت بالندم على تسرعها بكتابة ذلك الخطاب ، وحدثتها نفسها بأن تنادي سعيدة وتأخذه منها ، ولكن هذه كانت قد توارت عن

نظرها . فشق عليها الامر وازداد قلقها ، لانها كتبت الخطاب وهي شديدة التأثر ، فلما خف تأثرها اخذت تلوم نفسها على كتابة تلك العبارات ، وكلما تصورت انها ضحت بسعادتها وآمالها في المستقبل بحرمانها من سليم شعرت بأبلغ الاسى والاسف ، وارتعدت فرائصها وبكتها ضميرها ، فأصبحت من جراء ذلك دائمة القلق خائرة القوى ، فلازمت الفراش تسكينا لما بها واخفاء لعواطفها ، ولكن اعتكافها اقلق والديها لانها وحيدتهما ، وكانا الى شدة محبتهما لها معجبين بذكائها ولطفها ، وما كانا ليقبلا خطبة سليم لها لولا ما لمساه من محبتها له، ومن اتصافه بالشهامة وكرم النفس والاستعداد لمستقبل عظيم .

* * *

بكر حبيب في اليوم التالي فاستقل اول قطار غادر حلوان الى القاهرة، وما وصل اليها حتى اخذ طريقه الى غرفة سليم ليعوده ويطمئن عليه قبل الذهاب الى الديوان .

ووجده مستيقظا في فراشه ، وعلى وجهه آثار الضعف والهزال ، فحياه وجلس بجانبه يواسيه ويرفه عنه بمختلف الاحاديث الى ان قال له : « لقد اسفت والدتي كثيرا حين علمت بمرضك ، وكانت تعتزم المجيء معي الآن لتراك وتطمئن عليك ، ثم اتفقت معها على ان آتي بها بعد الظهر » .

فقال سليم : « جزاها الله خيرا ، لا داعي لتعبها » .

ولاحظ حبيب ان في نظرات سليم وعباراته ما ينم عن التبرم والجفاء فعجب من ذلك ثم عزاه الى اضطراب سليم وقلقه بسبب المرض والوحدة ، وواصل ملاطفته ومواساته قائلا : « انك اليوم احسن حالا منك امس ، ولعلك سعدت بنوم عميق هنيء » .

فتنهد سليم اسفا وقال : « لم انم الا فترات قصيرة متقطعة ، تخللتها احلام مزعجة . وقد ارسلت الخادم منذ قليل ليأتيني بمسهل اتناوله اليوم، كما اوصيته باعداد بعض المرق لاتغذى به » .

فقال حبيب : « حسنا فعلت يا عزيزي ، وارجو ان اراك بعد الظهر وقد تم لك الشفاء » . ثم اعطاه بعض الصحف ليتسلى بمطالعتها ، وودعه منصرفا الى مقر عمله .

فلما خلا سليم الى نفسه ، عادت اليه هواجسه في شأن سلمى ، وود لو يعلم حالها بعد ان بعثت اليه بخطابها الاخير ، وكأن قلبه دله على انهـا مريضة مثله . ثم تذكر ما كان فيه من النعيم بقربها ، وما آلت اليه حاله فلم يتمالك عواطفه وغلبه البكاء . وما زال يطلـق لدموعه العنان حتى عـاد الخادم بالدواء المسهل ، وقرع باب الغرفة مستأذنا في الدخول به ، فمسح سليم عينيه واذن له في الدخول ، ثم تنـاول منه الدواء وشربه ، واخـذ يتشاغل بمطالعة الصحف التي تركها له حبيب ، بينما انصرف الخادم لاعداد المرق الذي طلبه .

وفي الساعة الاولى بعد الظهر ، عـاد اليه حبيب فوجـده ممددا في سريره ، وجس يده فاذا بنبضه يتسارع وحرارته عادت الى الارتفاع ، فأدرك ان الحمى عاودته ولا تلبث ان تشتد وطأتها كأمس ، لكنه تجاهـل وسأله : « كيف حالك الآن يا عزيزي ؟ » .

فقال سليم بصوت ضعيف : « كنت في الصباح احسن حالا مني الان » .

فأخذ يغالطه ناسبا ذلك الى تأثير المسهل الذي تناوله ، ثم قال له : « ان هواء حلوان نقي جاف منشط ، ويا حبذا لو ذهبت معي للاقامة معنا اياما هناك لتبديل الهواء » .

فاعتذر سليم من عدم استطاعته ذلك شاكرا ، وقال : « لا داعي الى

مغادرة الفراش والانتقال الآن » . ثم اصر على الامتناع برغم الحاج حبيب ، فرأى هذا ان لا سبيل الى اقناعه الا بأن يأتي اليه بوالدته لتتولى اقناعه بنفسها . فاستأذن في الانصراف ، وسارع الى منزله في حلوان مستقلا قطار الساعة الثانية بعد الظهر ، حيث انبأ والدته بما حدث ، فوافقته على الذهاب معه لاحضار سليم ، وبعد ان تناولا الغداء ، غادرا المنزل الى المحطة حيث استقلا القطار الى القاهرة ، فوصلا الى غرفة سليم وقت الاصيل ، وكانت الحمى قد اشتدت وطأتها عليه فأخذ يئن ويتوجع .

وما رأته والدة حبيب في هذه الحالة حتى تناثرت الدموع من عينيها حنانا واشفاقا ، فمالت عليه وقبلته قائلة : « لا بأس عليك يا ولدي » . ثم اخذت تواسيه وتهون الامر عليه .

ولم يتمالك سليم عواطفه ازاء حنانها وعطفها ، اذ تذكر والدته فأخذت الدموع تنهل من عينيه ، وتمتم قائلا : « آه يا اماه ! » .

فازدادت والدة حبيب تأثرا ، وانحنت عليه وهي لا تستطيع امساك دموعها ، واخذت تمسح العرق المتصبب من وجهه قائلة : « انت بخير يا ولدي ، فاطمئن وثق بأني لك كوالدتك ، فانت مني بمنزلة حبيب » .

فاشتد هياج اشجان سليم ، وامعن في البكاء برغم محاولته التجلد ، وود لو انه لم يفارق والدته ، ولم يعرف الحب الذي اقصاه عنها وحملها على اتهامه بالعقوق . بينما واصلت والدة حبيب تهدئة روعه . اما حبيب فلم يتمالك عن البكاء هو الآخر ، لكنه حول وجهه عن سرير صديقه حتى لا يلحظ بكاءه فتزداد اشجانه .

واخيرا مالت والدة حبيب على وجه سليم وقبلته قائلة : « انني اسألك بحق والدتك عليك ان تكف عن البكاء ، وان تذهب معنا الى حلوان ، فمنزلنا هو منزلك ، وكلنا في خدمتك حتى يتم شفاؤك قريبا باذن الله » .

وحاول سليم ان يرد عليها ، فخنقته عبراته ولم يستطع التكلم ، اذ

تذكر ان والدته غير راضية عنه . ثم استطاع التجلد قليلا بعد حين وقـال وكأنه يحدث نفسه : « انني استحق هذا الذي انا فيه ، بل استحق اكثر منه ، فهكذا يكون جزاء العقوق ونكران الجميل » .

فعجبت والدة حبيب ، ولم تفهم مراده لخلـو ذهنها مما بـين سليم ووالدته . وخشي حبيب ان تلح والدته في سؤال سليم عن مراده فيصرح لها هذا بسره الذي يحرص على كتمانه . فأشار اليها بأن تكف عن الحديث مع سليم لانه في بحران الحمى . ثم قال لها : « سأذهب الآن لاحضر طبيبا يفحصه ويقرر ما ينبغي له من العلاج ، فامكثي انت بجانبه ريثما اعود » .

ثم غادر الفندق على اثر ذلك ، وتوجه الى اقرب طبيب من هنـاك ودعاه الى مرافقته لفحص سليم وعلاجه ، وفي طريقهما الى الفندق طلـب اليه حبيب ان ينصح لسليم بتبديل الهواء في حلوان ، ليقيم بمنزله هنـاك لانه غريب عن القاهرة ، فوعده الطبيب بذلك . وبعد ان فحص سليما قال له : « لا خوف عليك من هذه الحمى ، ويكفي لشفائك منهـا ان تلتزم الراحة وتبدل الهواء بالاقامة في مكان جوه جاف . ومع هذا سأصف لك دواء يعاونك تناوله على سرعة الشفاء » .

فسأله سليم : « هل ترى أن لا بد لي من تبديل الهواء والانتقـال من هنـا ؟ » .

فقال الطبيب : « نعم لا بد من ذلك ، ويحسن ان تقصد الى حلوان لجودة هوائها وهدوئها . على ان يكون انتقالك اليها بعد زوال نوبـة الحمى » .

فسكت سليم موافقا وهو يقول لنفسه : « لا بأس باقامتي اياما بمنزل حبيب في حلوان ، فلعلي استطيع هناك الوقوف على شيء يكشـف لي حقيقة علاقته بسلمى . وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

وبقي حبيب ووالدته مع سليم في غرفته حتى انقشعت عنه نوبة الحمى

ثم ساعده حبيب في ارتداء ثيابه ، وبعث في طلب عربة مغلقة لنقله فيها الى المحطة لركوب القطار منها الى حلوان . وما زال هو ووالدته يتعاونان على خدمته والمحافظة عليه من البرد حتى وصلوا الى المنزل ، وخصصوا لاقامته احسن غرفة فيه . وتنافس حبيب ووالدته وشقيقته في الترحيب به وتعهده بالغذاء والدواء والغطاء ، حتى داعب النوم جفنيه وما لبث ان غط في نوم عميق ، ولم يستيقظ الا في الصباح ، وقد شعر بأنه استرد بعض قواه وتحسنت حالته .

• • •

امضى حبيب ليلته مسهدا يفكر في امر صديقه سليم بعد ان اطمأن عليه وتركه نائما . وهداه تفكيره الى ان يسافر بنفسه الى الاسكندرية فيقابل والدة سليم ويشرح لها امره . فلا بد ان قلبها سيرق لفلذة كبدها حين تعلم بأنه مريض . وقد يكون غضبها وانكارها عليه خطبة سلمى تأثرا بوشاية بعض الحساد ، فيسهل اقناعها بالعدول عن رأيها وتحقيق رغبة سليم . وبذلك يكون قد ادى له خدمة جليلة .

ثم تذكر حبيب ان اليوم التالي يوم جمعة ، فاغتبط كثيرا لان خلوه من العمل في هذا اليوم مما يسهل أمر سفره الى الاسكندرية .

وفي صباح اليوم التالي ، خلا الى والدته وانبأها بما اعتزمه من امر السفر والغرض منه ، واوصاها بأن تكتم ذلك عن سليم كل الكتمان ، ثم صحبها لرؤيته في غرفته فوجداه مضطجعا في سريره وعليه دلائل البشر والعافية . فاغتبطا بذلك وجلسا بالقرب منه يلاطفانه ويسليانه بمختلف الاحاديث .

وبعد قليل ، نهض حبيب وغادر الغرفة مشيرا لامه بطرف عينيه انه مسافر في المهمة التي اتفقا عليها ، فلحقت به وودعته داعية له بالسلامة

والتوفيق . ثم عادت الى سليم في غرفته ، ولحقت بها ابنتها شفيقة . وجلستا تجاذبانه الحديث وتقدمان له ما يحتاج اليه من الطعام والشراب والدواء .

ومضت ساعة وسليم يبدو باسم الثغر منشرح الصدر ، ثم تجهم وجهه فجأة وظهرت عليه دلائل الانقباض الشديد ، اذ تذكر خطاب والدته وحكاية داود عن سلمى وحبيب . على انه ما لبث ان تجلد وتكلف الابتسام حتى لا ينكشف امره امام مضيفتيه ، ثم تظاهر بالتلفت حوله وسأل : « اين حبيب ؟ » .

فانطلت عليهما حيلته ، وقالت ام حبيب : « سيكون هنا بعد قليل ، فقد ذهب الى القاهرة لانجاز بعض المهام » .

فعجب سليم من ذهاب حبيب الى القاهرة دون ان يخبره ، وعاودته الهواجس فخيل اليه ان لذهاب حبيب الى القاهرة علاقة بسلمى ، ولا سيما ان اليوم يوم جمعة والاعمال معطلة في دور الحكومة ، وكان المنتظر ان يبقى معه طول اليوم لو انه كان مخلصا في صداقته له وليس متواطئا مع سلمى عليه .

واشتدت به الوساوس حتى اعتقد ان حبيبا ما دعاه الى الاقامة بمنزله في حلوان ، الا ليبعده عن القاهرة ، فيخلو جوها لسلمى وله ويتساقيان كؤوس حبهما الآثم وهما آمنان مطمئنان !

ولاحظت والدة حبيب ان غيابه اقلق سليما وازعجه الى حد ملحوظ ، فأرادت ان تشغله عن ذلك والتفتت الى ابنتها وقالت لها : « هلا احضرت يا شفيقة كتابا او رواية لطيفة مما عند حبيب لكي يتسلى عزيزنا سليم بالمطالعة اذا شاء ؟ » .

فنهضت شفيقة وخرجت من الغرفة ثم عادت بعد قليل وقالت وهي تشير الى بضعة مفاتيح صغيرة في سلسلة بيدها : « الحمد لله لقد وجدت

كل كتب حبيب ورواياته في خزانته الخاصة التي يحرص دائما على اغلاقها والاحتفاظ بمفاتيحها معه . لكنه لحسن الحظ لم يرتد معطفه ، وهذه هي وجدتها فيه ، فأي انواع الكتب او الروايات احضرها ؟ » .

فالتفتت والدتها الى سليم وسألته : « ألا تحب مطالعة القصص ؟ » .

فقال : « لا بأس ففي مطالعتها تسلية » . قال هـذا وهو يجاهـد لاخفـاء ما به .

فهرولت شفيقة الى خزانة كتب حبيب ، ثم عادت بعد قليل وفي يدها رواية افرنجية وقالت : « لا بد من ان تكون هذه الرواية جميلة مشوقة . فمنذ اسبوع رأيتها في يد حبيب يطالعها في شغف عظيم ، وامضى ليلة كاملة ساهرا في غرفته حتى اتم قراءتها » .

فقالت والدتها : « وانا ايضا رأيته مشغولا بقراءتها عند فجر تلـك الليـلة » .

فتناول سليم الرواية، واخذ يقلب صفحاتها متظاهرا بالمطالعة، وخرجت شفيقة وامها من الغرفة ليتركا سليما يطالع الرواية في هدوء ، ويشرفا على شؤون البيت .

* * *

اخذ سليم يقلب صفحات الرواية ، وفكره مشغول بسفر حبيب الى القاهرة على غير انتظار ، وفيما هو في ذلك وقعت عينه على ورقة مطويـة بين الصفحات ، وما كاد يتأملها حتى لاحظ انها مكتوبة بخط يشبه خط سلمى ، فازداد اشتعال نار الغيرة في قلبه ، وتصور حبيبا جالسا مع سلمى يتبادلان احاديث الحب والهيام ، فندم على مجيئه الى منزله . ثم اخذ يقرأ ما في الورقة ، وهو يختلس النظر الى باب الغرفة محاذرا ان يراه احـد وهو يقرؤها . فاذا بها حافلة بعبارات الحب والاشتياق والصبابة . فلم يبق

لديه شك في خيانة سلمى وحبيب ، وتحقق صحة ما سمعه عنهما من داود ، فاشتد خفقان قلبه ، واخذ ينتفض في سريره كأنما عاودته الحمى . ثم لم يتمالك عواطفه فقفز من السرير ثائرا ، واخذ يخطر في جوانب الغرفة قلقا حائرا مضطربا ، والورقة في يده يعاود قراءتها ويناجي نفسه قائلا : « تبا لها من خائنة ماكرة محتالة ! بل تبا لي من مغفل ساذج اذ انطلت علي حيلتها فاعتقدت انها ملاك طاهر ، في حين انها ليست سوى شيطان رجيم ».

وسكت قليلا اذ سمع وقع اقدام خارج الغرفة ، فلما ابتعدت الاقدام، استأنف مناجاته لنفسه قائلا : « أهذه هي المحبة الطاهرة التي كانت تستحلفني بها ؟ أهذا جزاء اخلاصي ووفائي وعقوقي لوالدتي في سبيل حبك يا سلمى ؟.. لقد طالما كذبت ما سمعته عنك ، وعاينت في ذلك ما لا طاقة به لقلبي ، حرصا على مودتك ، وانما بطهارتك وعفتك ووفائك. ولكن آه !.. هاأنذا الآن قد تحققت صحة اتهامك ، ولمست خيانتك ، واني لاشكر الظروف التي هيأت لي الوقوف على ذلك ، لأنبذك نبذ النواة يا خائنة » .

ثم عاد الى تأمل الورقة ، فلاحظ اختلافا يسيرا بين خطها وخط سلمى. لكنه هز رأسه مستخفا بهذه الملاحظة ، وعاد يقول : « انه خطها ما في ذلك شك ، ولكنها كتبت هذه الورقة منذ عهد بعيد ، اي ان حبها الآثم لحبيب ليس جديدا ، وقد استطاعا خداعي والتمويه على كل هذا العهد الطويل . على اني لا ألومه بقدر ما ألومها على ذلك . لاني ملكتها قلبي ووهبتها روحي واغضبت لاجلها والدتي المسكينة .. آه يا والدتي !.. اين انت الان. الا رحماك بولدك المسكين ، واصفحي عنه ، فقد كفى ما لقيه من الحزن والمرض وخيبة الامال ، جزاء عقوقه لك ، وركونه الى وعود فتاة خادعة محتالة ، والى نفاق عدو في ثياب صديق ! »

ولاح له ان يبادر بارتداء ثيابه ويغادر المنزل فورا ليستقل القطار الى القاهرة ، ثم يستأنف السفر منها الى الاسكندرية حيث يقابل والدته

ويقبل يديها مستغفرا نادما . لكنه شعر بأنه في حالة من المرض والتعب لا يقوى معها على السفر ، وقد تعاوده الحمى وهو في الطريق فيحدث ما لا تحمد عقباه . فلم يتمالك نفسه واستلقى على السرير آخذا في البكاء لفرط يأسه وغيظه وأساه .

وفيما هو كذلك ، دخلت عليه والدة حبيب ، وهي تحمل في يدها اناء فيه شيء من مرق اللحم اعدته له . فبالغ بالتدثر بالغطاء متظاهرا بأنه شعر بالبرد حتى لا تلاحظ عليه شيئا ينم عما هو فيه . فحسبته نائما ووقفت بازاء السرير ثم اخذت تدعوه باسمه متلطفة ، فمسح دموعه عن وجهه قبل ان يكشفه متظاهرا بالاستيقاظ من النوم ، والتفت اليها وهو ما زال ممددا في الفراش ، فقالت له : « لقد حان وقت الظهر يا ولدي، ويحسن ان تتناول قليلا من المرق » .

فقال لها : « شكرا لك يا سيدتي ، لا حاجة لي بأي طعام الآن ؟ » .

فقالت : « ان الطبيب اشار بأن تتناول شيئا من المرق ، لانه يعاون على استرداد قواك » .

فاكتفى بأن اشار اليها بيده مصرا على الرفض ، ولكنها لم تيأس من اقناعه ، ووضعت الاناء الذي تحمله على المنضدة المجاورة للسرير ، ثم انحنت عليه واخذت تربت وجهه متلطفة وقالت له في حنان : « ان المرق خفيف على المعدة ، وسيفيدك تناوله فائدة كبرى باذن الله » .

فتململ في مرقده ضجرا ، ولم يتمالك نفسه فقال لها : « لماذا لم يعد حبيب حتى الآن ؟ أليس اليوم يوم الجمعة ولا عمل له في القاهرة ؟ » .

فقالت : « لقد اخبرني بأنه داهب في مهمة خاصة ، ولعل بعض زملائه اخروه هناك كي يتغدى معهم ، ولا يلبث ان يعود الينا بعد قليل » .

فحدثته نفسه بأن يرد عليها قائلا : « بل هو الآن مع سلمى » . لكنه امسك وسكت . فعادت هي الى حمل اناء المرق بيدها ، وقدمته له قائلة :

« بالله يا ولدي الا قبلت رجائي وتناولت هذا المرق الخفيف » . ثم مدت يدها الاخرى اليه بالملعقة ، فلم يسعه الا ان يمد يده لتناولها من يدهـا متأثرا بعطفها وحنانها ، ثم هم بالنهوض ليتناول الاناء من يدها الاخرى ، وما كاد يحمله بعد ان استوى جالسا حتى ارتجفت يده واهتز الاناء فانسكب جانب من المرق على حافة السرير ، فاحمر وجهه خجلا واسفا . لكن السيدة سارعت الى تهدئة خاطره قائلة : « لا بأس يا ولدي » . ثم مسحت حافة السرير المبتلة بالمنشفة ، وجاءته بمنشفة اخرى وضعتها على ركبتيه ، وقالت: « بالهناء والشفاء يا ولدي ، سآتيك بقطعة صغيرة من اللحم المشـوي لتتغذى بها وفق مشورة الطبيب » .

فحاول ان يعتذر من عدم استطاعته تناول اي طعام آخر ، لكنهـا سرعان ما انطلقت الى المطبخ ثم عادت وهي تحمل اناء به بعض اللحـم المشوي ، فوضعته على المنضدة . ثم فتحت خزانة بجانب السرير واخرجت منها ملاءة بيضاء نظيفة لتضعها على السرير بدلا من الملاءة المبتلة بعد ان يفرغ سليم من تناول الطعام ، ولم تتركه حتى شرب المرق وتناول شيئا من اللحم ، فأبدلت ملاءة السرير وبقيت بجانبه تسليه وترفه عنه بالاحاديث حتى رأته يغمض جفنيه وكأن النوم يداعبه ، فنهضت وتسللت خارجة من الغرفة تاركة اياه لينام .

على انه في الحقيقة لم يكن يريد النوم ، بل تظاهر بذلك كي يخلو الى نفسه . ويعاود التفكـير في امر سفره الى والدتـه ، وفي امر سلمى وحبيب . وكلما مضت ساعة دون ان يرجع هذا من القاهرة اشتدت الغيرة بسليم ، وهاج حنقه عليه وعلى سلمى ، حتى ان نفسه حدثته اكثر من مرة بأن ينهض ويغادر المنزل كي يستقل القطار الى القاهرة ويفاجئهما في خلوتهما هناك ، ثم ينتقم منهما شر انتقام .

ولما جاء المساء دون ان يرجع حبيب ، لم يعد سليم يقوى على تحمل

ما يساوره من الوساوس والهموم ، وكان الى ذلك يشعر بانه اشد تعبا وتخاذلا منه بالامس ، ويتوقع ان تعاوده الحمى اشد مما كانت . وعبثا حاولت شفيقة ووالدتها ان ترفها عنه ، وضاق هو بمحاولتهما فتظاهر هو بحاجته الى النوم . حتى اضطرهما الى تركه وحده .

٩

في الاسكندرية

وصل حبيب الى الاسكندرية بالقطار السريع الذي يصل اليها في الساعة الاولى بعد الظهر ، فاستقل عربة توجه فيها من فوره الى منزل والدة سليم في شارع المسلة . وكان يعرفها من قبل وبينه وبين ابنها فؤاد شقيق سليم صداقة ومحبة ، وسبق له ان زار المنزل اكثر من مرة وهو يصطاف في الاسكندرية .

ولما بلغ المنزل وطرق الباب ، فتحته له سيدة لا يعرفها متوسطة العمر مكتنزة الجسم تنم ثيابها وزينتها عن الغنى وحب الظهور . فلما وقع بصره عليها حسب انه اخطأ المنزل او ان من كانوا فيه انتقلوا منه الى غيره. فاعتراه الخجل وقال للسيدة التي استقبلته متلعثما : « أليس هنا مسكن الخواجه فؤاد ؟ » .

قالت : « نعم . ولكنه ليس هنا الآن » . وظهرت على وجهها امارات الارتباك .

فقال حبيب : « وهل السيدة والدته غائبة ايضا ؟ » .

فقالت : « لا يا سيدي بل هي هنا » . ثم تنحت عن الباب ودعته الى الدخول ، فدخل مترددا وجلس في حجرة الاستقبال ، بينما مضت السيدة لتدعو والدة سليم .

وبعد قليل سمع وقع اقدام خارج الحجرة ، ثم دخلت عليه والـده سليم وهي في ثوب بسيط ووجهها يفيض بالتقى والورع وان بدا فيه شيء من الانقباض . وما كادت تراه حتى عرفته فترقرقت الدموع في عينيها ، وهمت به مرحبة فضمته وقبلته قائلة : « اهـلا وسهـلا بولدنا العزيز حبيب » .

فقبل يدها وهو يغالب البكاء تأثرا بلطف استقبالها اياه ، ولما ادرك من ان سبب بكائها هو تذكر ولدها سليم . لكنه تجلد وتجاهل وسألها : « كيف حالك يا سيدتي ، وكيف حال اخي فؤاد وبقية الاسرة ؟ » .

فقالت : « كلهم بخير ، والحمد لله على سلامتك » . ثم تنهـدت واردفت قائلة : « وكيف حال سليم ، ولماذا لم يأت معك ؟» .

فارتبك حبيب قليلا ثم اجاب بقوله : « هو بخير والحمـد لله ولا ينقصه غير مشاهدتكم . وقد جئت الى الاسكندرية فجأة قبل ان اقابله ، ولولا ذلك لجاء معي » .

فتنهدت مرة اخرى واطرقت ولم تجب .

وادرك حبيب سر اطراقها وسكوتها فازداد ارتباكه ، ولم ينقذ الموقف الا دخول السيدة التي فتحت له الباب ، وقد وضعت قبعتها على رأسهـا متهيئة للخروج ، وقالت لام سليم : « اسمحي لي ان انصرف الآن ، اذ لا بد لي من ذلك . وسأتمم الامر الذي اتفقنا عليه نيابة عنك ، فكوني مطمئنة » .

فقالت والدة سليم : «بورك فيك يا عزيزتي ولا حرمنا الله من فضلك» ثم نهضت وودعتها حتى الباب الخارجي ، وعادت بعد ذلك الى حبيب ، واخذت تكرر تحيته والترحيب به الى ان قالت : « لعلك قادم من السفر

الآن فقط ؟ » . فقال : « نعم . وقد جئت من المحطة اليكم رأسا » .

فسكتت واطرقت مفكرة ، كأنها تحاذر ان تقول شيئا . ثم رفعت رأسها فاذا بالدموع تنهمر من عينيها ، وقالت : « وماذا صنع سليم مع فتاته واهلها ؟ » .

فتجاهل وقال : « اية فتاة يا سيدتي ؟ » .

فقالت : « الفتاة التي احبها وكتب الي بأن أوافيه في القاهرة لاتمام خطبتها » .

فقال وهو يجاهد لاخفاء ارتباكه : « وهل اعتزمت اجابة طلبه ؟ » .

قالت : « كلا ، بل كتبت اليه بأني غير موافقة على خطبة تلك الفتاة » .

فقال : « ولماذا ؟ هل عرفت الفتاة من قبل ؟ » .

فتنهدت وقالت : « لم ارها ولا احب ان اراها ، وكفى ما سمعته عنها ممن عرفوا دخائلها ووقفوا على سيرتها. ولولا ان قيضهم الله لاخباري بأمرها وامر اسرتها في الوقت المناسب لانسقت مع سليم في تيار خداعهم واحتيالهم » .

فأدرك حبيب صدق ما ظنه من ان عدم موافقتها على خطبة سلمى لسليم لم يكن الا لوشايات كاذبة ، واراد ان يعرف من هم اصحاب هذه الوشايات فقال لها : « لكن يا سيدتي انت تعرفين تعقل سليم وانه ليس ممن يخدعون بسهولة . فلعل ما سمعته عن الفتاة واهلها من سواه غير صحيح » .

فقالت : « كلا يا بني ، ان السيدة وردة التي رأيتها هنا الآن هي التي تفضلت مشكورة فكشفت لي حقيقة ذلك الامر ، وهي سيدة عريقة الاصل وتحبنا محبة صادقة ، ولولا تعزيتها لي ، وملازمتها اياي منذ وقع الجفاء بيني وبين سليم بسبب تشبثه بخطبة تلك الفتاة ، رغم نصحي له بتركها ، لقضيت حسرة وغما » .

وكان حبيب قد نفر قلبه من وردة منذ وقع نظره عليها وهي تفتح

الشاب له ، لما لاحظ عليها من التبرج والخلاعة . فأدرك انها سبب كل ما حل بسليم وسلمى من الشقاء . وانها لا بد قد رمت بوقيعتها ونميمتها الى غرض خاص . ثم اراد ان يتحقق ذلك فقال : « هل السيدة وردة هذه من القاهرة ؟ » .

فقالت : « انها تقيم بالاسكندرية منذ سنين . ولكنها تعرف كثيرا من العائلات في القاهرة ؛ ولها املاك هناك ورثتها عن المرحوم زوجها هي وابنتها الوحيدة » . قالت ذلك وتنهدت . فرجح حبيب ان وردة سعت في افساد علاقة سليم بسلمى . لكي تزوجه بابنتها ؛ وقال لوالدته : « هل ابنتها هذه متزوجة ام لم تبلغ سن الزواج بعد ؟ » .

فعادت والدة سليم الى التنهد . وقالت : « هي شابة في غاية من الجمال والكمال ، وقد خطبها كثيرون من ابناء العائلات الكبيرة الغنية ، لكن والدتها كانت عند حسن ظني بصداقتها واخلاصها لنا فلم تقبل احدا منهم» .

فتحقق حبيب صدق ظنه ولكنه تجاهل ، وقال : « ولماذا لم تقبل زواج ابنتها من اولئك الشبان الاغنياء ابناء العائلات الكبيرة ، وما علاقة هذا بصداقتها واخلاصها لكم ؟ » .

فقالت : « لا اخفي عليك انها كانت قد تفضلت ووعدتني بقبول سليم زوجا لابنتها . وانت تعلم ان سليما ليس له ايراد الا ما يأتيه من عمله في المحاماة ؛ وهو ما زال مبتدئا فيها . فزواجه من اميلي ابنة السيدة وردة يجعله صاحب التصرف في ثروتها الكبيرة فيريحه هذا من عناء الاهتمام بأمر المعيشة ويصبح من الوجهاء . وقد كنت معتزمة مخاطبته في هذا الامر بعد ان تحققت محبة الفتاة ووالدتها له . ولكنه فاجأنا بأمر تعلقه بتلك الفتاة الاخرى التي وقع في حبائلها . وكتبت اليه محذرة منذرة لكي يقطع صلته بها مبينة له ما علمته عن سيرتها السيئة ودناءة اصلها . لكنه وا أسفاه لم يستمع لنصحي وتحذيري ؛ ونسي جهادي في سبيل تربيته واخلاصي في

السعي لاسعاده ، وقد آليت على نفسي الا ارضى عنه ما لم يرجع الى رشده ويترك تلك الفتاة ، ويقترن باميلي التي لن يظفر بزوجة في مثل جمالها وعراقة اصلها وغناها ، فضلا عن اتفاقي مع والدتها على ذلك ورفضها عشرات الخطاب الآخرين مراعاة لهذا الاتفاق » .

فقال حبيب : « ارجو ان تصغي جيدا لما سأقوله يا سيدتي ، وان تحكمي عقلك لا عاطفتك . فالامر جد خطير كما سأبين لك » .

فدققت النظر اليه مندهشة ، وقالت : « اني مصغية اليك يا ولدي ، فقل ما تريد » .

قال : « انك ارتبطت مع صديقتك السيدة وردة في شأن خطبة ابنتها لسليم دون ان يعلم بشيء من ذلك . وكما انك تستنكفين الا تتم هذه الخطبة ، لا شك في انه يستنكف الا يفي بوعده للفتاة التي احبها ، ولا سيما انه ارتبط بوعده لها وهو لا يعلم شيئا مما اتفقت عليه في شأن الفتاة الاخرى » .

فقالت : « لقد كتبت اليه بما علمته من امر الفتاة التي وقع في شراكها، وكان عليه ان يستمع لمشورتي ، لاني امه ولا يمكن ان اشير عليه الا بما فيه خيره وسعادته » .

قال : « لا اريد ان اقول : انك كتبت اليه بعد ان تمكن الحب من قلبه وصار من الصعب عليه ان يتخلص من ذلك الحب . ولكني اقول : ان صديقتك السيدة وردة لم تكن خالية من الغرض حين اوغرت قلبك على الفتاة التي احبها سليم ، فمن مصلحتها طبعا الا يستمر هذا الحب لكي يتم ما اتفقتما عليه من زواج سليم بابنتها » .

قالت : « ان اميلي جميلة مثقفة غنية وامامها عشرات الخطاب كما ذكرت لك ، وهم جميعا اغنى واحسن مركزا من سليم . فلو ان صديقتي السيدة وردة كانت لا تبغي سوى مصلحتها ومصلحة ابنتها ، لانتهزت

الفرصة وزوجتها من احد اولئك الخطاب الوجهاء الاغنياء . ولكنها في الواقع حرصت على مصلحة سليم . وتعبت كثيرا في سبيل انقاذه من تورطه في حب فتاة القاهرة ؛ وهي التي تولت ارسال الخطابات اليه باسمي في ذلك الشأن لاني لا اعرف الكتابة . وأسأل الله ان يجزيها عنا خير الجزاء فهي حقا مثال المروءة والوفاء .

* * *

كانت الخادمة قد جاءت بالقهوة وقدمتها لحبيب ، فشربها ثم قال لوالدة سليم : « اسمعي يا سيدتي ، اني مثلك لا اريد الا ما فيه الخير والسعادة لسليم . وما جئت من القاهرة اليوم الا لابحث معك هذا الامر . وانا اؤكد لك ان كل ما سمعته عن الفتاة التي احبها في القاهرة وسوء سيرتها ووضاعة اصلها ليس له من الصحة ادنى نصيب ، وانما هو محض كذب وافتراء ، فهي من اطهر الفتيات واطيبهن عنصرا ، ولم يحبها سليم الا لما لمسه فيها من الخلال الحميدة . وسأطلعك الآن على سر وقفت عليه مصادفة دون علم سليم ، وفيه ما يكفي دليلا على شرف تلك الفتاة وعزة نفسها ونبل اخلاقها » .

فقالت : « ما هو هذا السر ؟ » .

قال : « ان سليما لم يطلعها على الخطابات التي ارسلتها اليه في شأنها ، او ارسلتها اليه السيدة وردة باسمك . ولكنها وقع في يدها اتفاقا احد تلك الخطابات ، فعلمت انك غير راضية عنها ، وانك لن ترضي عنه ان استمر في علاقته بها ، فهل تعلمين ماذا صنعت بعد ذلك ؟ » .

قالت : « لا اعلم طبعا ، فماذا صنعت ؟ » .

قال : « كتبت اليه مؤكدة له انها رغم شدة حبها اياه ، لا يسعها قط ان تكون سببا لوقوع الجفاء بينه وبين والدته ؛ ولا سيما بعدما علمت منه

بما عانيت في سبيل تربيته . ولذلك احلته من جميع العهود والوعود التي ارتبطا بها ، لتتيح له النزول عند رغبتك » .

فعجبت والدة سليم من ذلك الامر وكادت ألا تصدقه ، فقالت له : « أحق ما تقول يا حبيب؟ » .

فقال : « اقسم لك يا سيدتي ، اني لم اقل لك الا الحق ، فتصوري الآن كيف ضحت الفتاة بسعادة قلبها في سبيل اعادة المياه الى مجاريها بينك وبين سليم ، ثم قارني بين تضحيتها ونبلها وعزة نفسها ، وبين تهافت السيدة وردة على تزويج ابنتها من سليم ، رغم ما تزعمه من كثرة خطابها وانهم جميعا من الوجهاء الاغنياء ، ورغم علمها بأنه يحب فتاة اخرى غير ابنتها » .

فسكتت والدة سليم قليلا ريثما ادارت الامر في ذهنها ، وقرأ حبيب في وجهها امارات التردد ، ثم قالت له : « الا يجوز ان تكون الفتاة قد كتبت اليه ذلك الخطاب امعانا في المكر والخداع ، لتبرهن له على شدة اخلاصها في محبته ورغبتها فيما يسعده ويرضيه ، كي يزداد تعلقا وهياما بها ؟ لقد سمعت انها بارعة في الحيلة والدهاء ! » .

فقال : « وما الذي تقولين يا سيدتي ؟.. ان المكر والدهاء والاحتيال وما الى هذه الصفات لا يمكن الصاقها بفتاة نقية طاهرة كهذه ، ضحت بسعادتها ومستقبلها حتى لا تفرق بين حبيبها ووالدته . وانما الاولى بهذه الصفات من تطلق لسانها بغير الحق وتنهش اعراض الناس بالباطل ، لكي تحقق اطماعها الخاصة » .

فتنهدت واطرقت قليلا ، ثم رفعت رأسها ومسحت بمنديلها دمعة ترقرقت في عينيها ، وقالت : « انني حائرة يا ولدي ، وقد زدتني حيرة بما سمعته منك الآن . والحق اني كنت قد يئست من اقناع سليم بترك الفتاة التي احبها . وخاطبت السيدة وردة في ذلك حين جاءتني اليوم ، فأشارت علي بارسال خطاب آخر الى سليم ندعوه فيه الى الحضور الى هنا في

اقرب وقت ، لعلنا نستطيع اقناعه بالحديث معه وجها لوجه . وقد انصرفت على ان تتولى كتابة هذا الخطاب وارساله الى سليم بالنيابة عني كعادتها ، واحسب أنها اتمت هذه المهمة عقب خروجها » .

فقال : « فلتكتب اليه ما شاءت . فهو لن يحضر الآن » .

فدهشت وسألته : « ولماذا لا يحضر ؟ » .

قال : « لانه لا يستطيع ذاك بسببك يا سيدتي » .

فازدادت دهشتها وقالت : « بسببي انا ؟.. لعله لا يريد ان يراني حتى لا يغضب حبيبته ؟! » .

فقال : « كلا يا سيدتي . ان لقاءك اعز امنية له ولا شك ، ثم هو لم يقابل الفتاة منذ تلقى خطابها الاخير . ولو انه كان لا يعنيه رضاك ، ما اتعب نفسه في محاولته اقناعك بوجهة نظره وببطلان التهم التي وجهتها الى الفتاة. وقد كان في استطاعته ان يعقد خطبتها رسميا قبل ذاك » .

قالت : « اذن لعله مشغول ببعض القضايا التي لا يمكن تأجيلها ؟ ».

فهز حبيب رأسه أسفا وقال : « ليس هذا ايضا ما يمنعه من الحضور، ولكنه .. » . وسكت دون ان يتم عبارته .

فأجفلت وتجلى القلق في وجهها وقالت : « لعله مريض ؟ » .

فقال : « نعم يا سيدتي هو الآن طريح الفراش ، ولكن ليطمئن قلبك فلا خطر عليه ،وهو عندنا بمنزلنا في حلوان ، ووالدتي وشقيقتي تتعهدانه بكل رعاية وعناية » .

فلم تتمالك من النهوض من مقعدها ودقت صدرها بيدها فزعا وجزعا وقالت باكية : « سليم ولدي مريض ؟ واحسرتاه ! » .

فنهض حبيب ، وامسك بذراعيها داعيا اياها الى الجلوس قائلا : « لا داعي للجزع يا سيدتي ، فهو لا يشكو سوى حمى خفيفة اصابته بسبب كدره وحيرته بينك وبين خطيبته . وقد افاده الدواء الذي وصفه له

الطبيب ولا يلبث أياما حتى يسترد عافيته كاملة » .

فجلست اجابة لطلب حبيب ، ولكنها لم تنقطع عن البكاء والنحيب وهي تردد قولها : « سليم مريض ؟ آه يا ولدي العزيز » .

واخيرا نهضت فجأة وهي تقول : « هلم بنا الى القاهرة ، لا تؤاخذني يا عزيزي حبيب فأنت بمنزلة ولدي ، ولا بد لي من السفر » .

وسكتت هنيهة مفكرة ثم قالت : « لقد ذهب فؤاد وقرينته للغداء عند اسرتها . ولا شك في انه سيتأثر كثيرا حين يعلم بحضورك وسفرك دون مقابلته ، ولكن يكفي ان تترك له ورقة تنبئه فيها بحالة سليم وبأننا عجلنا بالسفر للاطمئنان على صحته » .

فقال حبيب : « انني سعيد جدا باعتزامك السفر معي لرؤية سليم . لان هذا سيعجل شفاءه ويرد اليه مرحه وسعادته . وسنستقل قطار الليل الى القاهرة باذن الله . والى ان يحين موعد السفر اكون قد انجزت بعض المهام في المدينة وعدت الى هنا لمقابلة اخي فؤاد ثم اصطحابك الى القاهرة».

ثم نهض وقبل يدها مكررا تأكيده ان صحة سليم لا تدعو الى اي قلق . وخرج مشيعا بدعواتها الطيبات .

ولما عاد بعد حوالي ساعتين كان فؤاد قد عاد الى المنزل فتعانقا وتبادلا التحيات ، ثم جلسا يتحدثان في شأن سليم وغير ذلك حتى حان موعد العشاء ، فتناولوه جميعا ، ثم اعدت والدة سليم حقائبها للسفر مع حبيب ، واستقلا عربة من المنزل حتى المحطة مودعين من فؤاد وقرينته ووردة بأطيب التمنيات .

وعلم حبيب من والدة سليم وهما في القطار ان وردة اظهرت جزعا شديدا حين أنبأتها بمرض سليم واعتزامها السفر الى القاهرة لرؤيته والاطمئنان عليه ، وطلبت اليها ان تخفي نبأ مرضه على ابنتها اميلي زاعمة انها ربما تموت حزنا وغما اذا علمت بذلك .

١٠

من سليم الى سلمى

بقيت سلمى معتكفة في فراشها وهي تغالب تأثرها الشديد . وتفكر فيما يكون من امر سليم بعد ان يطلع على خطابها . وقد اشتد ندمها على كتابتها هذا الخطاب ، وشعرت بأنها اخطأت في حق سليم ، وكان عليها ان تتأنى ولا تنساق مع عواطفها المهتاجة فتقضي بجرة قلم على علاقتهما بعد ان توطدت وارتبط قلباهما .

وكانت تتوقع ان يأتي سليم لمقابلتها على اثر اطلاعه على خطابها . فبقيت حتى عصر ذلك اليوم وهي كلما سمعت طرقا على باب المنزل حسبت انه هو القادم . فيشتد خفقان قلبها وتضطرب اعصابها . فاذا تبينت ان القادم غيره عاودها اليأس ولاح لها انها فقدت حبيبها الى الابد ، فيزداد جزعها وندمها على كتابة ذلك الخطاب اليه .

ولم تكن تستطيع ان تفرج عن نفسها بالبكاء ، لان ابويها كانا يلازمان غرفتها ، ولا يتركانها الا فترات يسيرة لمقابلة زائر او انجاز عمل في المنزل. كما ان سعيدة الخادمة الماكرة العجوز حرصت على ان تبقى قابعة بالقرب من سريرها ، متظاهرة بشدة جزعها وتفانيها في خدمتها وتلبية مطالبها .

وكان ابواها يتوقعان ايضا ان يجيء سليم كعادته عند الاصيل ، فلما ولى النهار دو ان يجيء ، قلقا عليه ، لكنهما لم يذكرا ذلك لسلمى مخافة ان يزيد هذا في توعكها وضعفها ، وهما لا يعلمان شيئا من امر خطابها اليه وخطاب والدته الذي وقع في يدها . كما انهم جميعا لم يعلموا بأمر مرضه وملازمته الفراش ، لان حبيبا حين زارهم عصر ذلك اليوم لم يشأ ان يخبرهم بذلك ، لما علمه من امر مرض سلمى ، وخشيته ان يزيدهم قلقا

وانشغالا، فخرج من هناك مكتفيا بأن تمنى لسلمى عاجل الشفاء، ومضى الى منزله في حلوان حيث أنبأ امه بمرض سليم واتفقا على نقله الى منزلهم للعنايــة به .

وامضت سلمى ليلتها وهي على تلك الحال من القلق والاضطراب ، ولم تنم الا فترات متقطعة تخللتها الاحلام المزعجة . واصبحت وهي اسوأ حالا منها بالامس . فدعا والدها الطبيب لفحصهــا ، وداخلهمــا بعض الاطمئنان حين قرر ان مرضها يسير لا يلبث ان يزول بالراحة والاستجمام ، ووصف لها دواء يعاون على التعجيل بالشفاء .

على انها في الواقع لم تكن في حاجة الا لما يعيد الى قلبها ما فقده من الامل والسعادة بتبادل الحب مع سليم . فلم يجدها تناول الدواء نفعــا ، وبقيت تتقلب في فراشها حائرة مضطربة ولا تجد شهية للطعام او الشراب ، الى ان حان وقت الاصيل ، فعاودها الامل في ان يجيء سليم كعادتــه ، واضطجعت في سريرها متشاغلة بمطالعة احد الكتب ، وهي ترهف السمع لعلها تسمع صوته أو وقع خطاه حين وصوله .

واخيرا ، سمعت طرقا على باب المنزل ، فاشتدت دقات قلبها ، ولم تتمالك نفسها فألقت بالكتاب على الوسادة بجانبها ، ولبثت ترتقب معرفة الطارق بعد ان خرجت والدتها بنفسها لفتح الباب .

وكانت ادما هي التي طرقت الباب ، وقد جاءت لحاجة في نفسهــا تتعلق بحبيب ، وهي لا تدري شيئا عن مرض سلمى . فلما علمت بذلك من والدتها ، بدا عليها الوجوم والاضطراب ، وسارعت الى الدخول عليها في غرفتها متعثرة الخطى . وما كادت سلمى تراها حتى تذكرت ما بها من المرض والضعف بسبب الحب ومتاعبه فلم تتمالك عواطفها واجهشــت بالبكاء . فهمت بها ادما وقبلتها ، وجلست بجانبها على السرير ، محاولة مواساتهــا والترفيه عنها ، ولكن لسانها لم يكن يقوى على الكلام لشدة ما هي فيه

من الارتباك .

وكانت سلمى تحب ادما وتأنس الى حديثها وتثق باخلاصـها لها ، فحدثتها نفسها بأن تخلو اليها وتكشف لها عن سبب مرضها وضعفـها . ولكنها عادت فآثرت الكتمان ، واكتفت بأن نظرت اليها وتنهدت متحسرة على انها ليست مثلها خالية القلب من الحب وما يجر اليه من تعب وشقاء . ولم تكن تدري بالحب المتبادل بين ادما وحبيب ، ثم قالت لها : « هنيئـا لك يا ادما ، اني اغبطك على ما انت فيه » .

فوقعت هذه العبارة وقوع السهم على قلب ادما ، اذ تذكرت السبب الذي جاءت من اجله ، ولاح لها ان سلمى عالمة بأمر علاقتها بحبيب ، وانها تغبطها على ذلك ، ثم همت بأن ترد عليها في صراحة ، لكنها خجلت من ذلك فتجاهلت وقالت : « على أي شيء تهنئيني يا عزيزتي ، ان حالتي لاحـق بالتعزية » .

فهمت سلمى بأن تصرح لها بأنها تهنئها على خلو قلبها من شواغل الحب ، ولكن الحياء امسكها ، فبدا عليها التردد ، ثم قالت وفي صوتها ما ينم عن انها لا تقول ما تعتقد : « انما اردت تهنئتك على ما انت فيه من صحة وعافية » .

فتحققت ادما صدق ظنها ، وان سلمى على علم بما بينها وبين حبيب من الحب ، ولا تريد ان تظهر ذلك .

ومضت فترة وهما صامتتان ، وكل منهما مشغولة بالتفكير في شأنها الخاص . ثم نهضت ادما مستأذنة في الانصراف وودعت سلمى متمنية لها عاجل الشفاء ، ثم عادت الى منزلها وقلبها يحدثها بأنها ستجد حبيبا هناك . لكنها لم تجد في المنزل احدا غير والدتها ، فأظلمـت الدنيا في عينيهـا ، وامضت بقية يومها في قلق وارتباك ما عليهما من مزيد .

* * *

كانت ادما بعد العودة من رحلة الاهرام تتوقع ان يجيء حبيب لمقابلتها في اليوم التالي ، ليستأنفا ما بدآه هناك من حديث الحب وما اليه .

ولبثت تنتظر مجيئه منذ ظهر ذلك اليوم . وهي لا تكاد تحول نظرها عن ساعة الحائط الكبيرة ، تعد الدقائق الباقية على موعد انصرافه من الديوان الى منزلها ، وتكاد لفرط شوقها الى لقائه تهم بعقارب الساعة فتقدمها عمدا لتقرب موعد اللقاء .

وبقيت حتى الساعة الثانية بعد الظهر وهي تارة تعود بذاكرتها الى مناجاتهما بالامس بجوار ابي الهول ، وتارة تتخيله قادما اليها وهو يبتسم فلا يسعها الا ان تقابل ابتسامته بمثلها ، ثم تدرك انه لم يأت بعد ، فتأخذ في اعداد العبارات المنمقة لتعبر له بها عن شعورها نحوه متى جاء . كل هذا ووالدتها مشغولة عنها ببعض شؤون المنزل ، ولا علم لها بما يعتمل في صدرها من عوامل الوجد والهيام .

وازداد قلق ادما ، ونفذ صبرها منذ اخذت الدقائق تمضي بعد ذلك دون ان يحضر حبيب . ولم تعد تستطيع الاستقرار في مكانها ، فأخذت تنتقل من غرفة الى غرفة ، ومن شرفة الى شرفة . وعيناها شائعتان تحملقان في اشباح الغادين والرائحين في الطريق الى المنزل . وكلما لمحت شخصا في مثل قامة حبيب ، او يرتدي بذلة قريبة اللون من بذلته ، تسارعت دقات قلبها . ثم لا تلبث قليلا حتى تتبين ان القادم ليس هو ، فتصعد الزفرات ، وتعود الى غرفتها متخاذلة ، لتعاود الوقوف امام المرآة ، لتتحقق ان عينه لن تقع على شيء فيها لا يرضيه ، وفي بعض الاحيان كانت تصادف والدتها في احدى تلك الغرف ، فلا يسعها الا التظاهر امامها بأنها تبحث عن ورقة او كتاب ، لتخفي عليها ما يشغلها ويقلقها .

ومضت ساعتان ، كأنهما لطولهما سنتان ، وادما على هذه الحال ، وكلما عادت الى الساعة ، حاسبة ان عقاربها أتمت دورة كاملة منذ رأتها

لآخر مرة ، وجدت انها لم تقطع سوى دقائق معدودات .

واخيرا ، وفيما هي مطلة من احدى النوافذ ، اذا بها ترى حبيبا مقبلا نحو المنزل ، فخفق قلبها ، وارتعشت ركبتاها ، وبردت اطرافها . ثم ابرقت اسرتها . وهان عليها ان تلقي بنفسها من النافذة بين يديه في الطريق ، ولا سيما حين رأته يختلس النظر الى شرفة غرفتها . ثم همت بأن تمضي الى تلك الشرفة لتطل عليه منها ، لكنها فوجئت بأن رأته انعطف فجأة عـن الطريق المؤدي الى المنزل ، ثم اتخذ سبيله في العطفة المجاورة التي بها منزل سلمى . فأخذتها الدهشة ولم تصدق عينيها اول الامر . ثم حسبت انه ضل الطريق ولا يلبث ان يرجع ، فلما طال انتظارها دون ان تراه راجعا ، تحولت عن النافذة وساقاها لا تكادان تقويان على حملهـا ، واخـذت الهواجس تتقاذفها ، ولم تملك عواطفهـا فارتمت على اول مقعـد صادفها واعتمدت رأسها بيديها آخذة في البكاء .

وبعد قليل ، سمعت وقع اقدام بالقرب منها فانتبهت لنفسها، وادركت ان امها على قيد خطوات منها ، فمسحت عينيها ونهضت متجلدة حتى لا تلحظ عليها امها شيئا . على ان فكرها ما زال مشغولا بحبيب وبسبب توجهه الى منزل سلمى .

ولاح لها ان تلحق به الى هناك كي تقف على ذلك السبب ، غير انها لم تجرؤ على ذلك . واكتفت بأن تسللت من المنزل الى المنزل الملاصق له ، وتظاهرت بالسؤال عن صديقة لها من الساكنات فيه ، في حين انها كانـت تقصد ان تطل على منزل سلمى من نافذة هناك .

وما كادت تطل من هذه النافذة حتى وقعت عيناها على حبيب خارجا من منزل سلمى ، فخفق قلبها بشدة ، ورجح لديها انه دخل هناك من غـير قصد ثم انتبه لنفسه فعاد ادراجه الى منزلها . وسرعان ما تحولت عن نافذة منزل الجيران وعادت الى منزلها حيث وقفت تطل على الشارع من شرفـة

غرفتها في انتظار وصول حبيب .

وكانت دهشتها اشد حين رأته يخرج من العطفة التي بها منزل سلمى، ثم يلقي على منزلها هي نظرة خاطفة ، وينثني عائدا الى المدينة دون ان يعرج عليه . وهمت بأن تناديه ولكن الحياء غلب عليها فأمسكت ، وبقيت واقفة تنظر اليه من الشرفة حتى توارى عن نظرها ، فأحست كأن قطعة من قلبها فصلت منه بسكين ، وازداد اضطرابها وامتقاع لونها ، ثم تحاملت على نفسها متحولة عن النافذة الى سريرها حيث ارتمت عليه متظاهرة بحاجتها الى الراحة ، وبقيت ملازمة سريرها والهواجس تتقاذفها . وهي تارة يعاودها الامل في رجوع حبيب لمقابلتها بعد ان ينتهي من انجاز المهام العاجلة التي شغلته عنها ، وتارة يداخلها اليأس فترجح انه لن يرجع ، وان ما صرح لها به امس من مبادلتها الحب والاخلاص لم يكن الا مجاراة لها . وهنا يأخذها الندم على تصريحها له بأنها التي ارسلت اليه ذلك الخطاب ، بل تلوم نفسها كل اللوم على كتابته ، وتعد ذلك عملا من اعمال النزق والطيش لم يكن يليق بمثلها ان تقوم به .

وعند العشاء ، سمعت وقع اقدام على سلم المنزل ، فاختلج قلبها ، وقفزت من سريرها لتفتح باب غرفتها وتستقبل القادم الذي رجحت انه حبيب . ولكنها ما لبثت ان سمعت صوت القادم فاذا هو ابوها ، فعاودها الانقباض ، وعبثا حاولت التجلد حتى لا يلحظ ابواها انقباضها وكدرها ، فجلست معهما على مائدة العشاء دون ان تستطيع تناول شيء من الطعام ، ولبثت بعد ذلك ساعة تتظاهر بالاستماع لحديثهما ، وفكرها مشغول بما هي فيه . ثم فقدت كل امل في مجيء حبيب ، فنهضت وأوت الى فراشها ، وباتت ليلتها تتقلب فيه على مثل الجمر ، وتتقاذفها عوامل اليأس والرجاء، والشك واليقين ، الى ان اقترب الفجر وكان ذهنها قد كل وتعب فأدركتها سنة من النوم ، تخللتها احلام مختلفة متقطعة ، بعضها مفرح لانه يعيد اليها

وقف حبيب معها في منطقة الاهرام وهما يتناجيان بعبارات الحب، وبعضها حزن مزعج لانه يعيد اليها صورته وهو يمر بمنزلها في طريقه الى منزل سلمى وعودته منه دون ان يعرج لمقابلتها .

واصبحت متعبة مكدودة ، فلم تبرح فراشها ، زاعمة لوالديها انها تشعر بصداع شديد . ثم ضاقت بملازمتهما غرفتها للاطمئنان على صحتها، فتحاملت على نفسها ونهضت فجلست على مقعد في الشرفة متشاغلة بالتطريز تارة وبالمطالعة في بعض الكتب تارة اخرى .

ولما حان موعد الغداء ، تناولت مع والديها قليلا من الطعام ، وابثت ساعة تترقب ان يجيء حبيب عقب انصرافه من الديوان . فلما لم يجيء ، نهضت وارتدت ثوب الخروج ، ثم خرجت بعد ان استأذنت والدتها لكي تزور صديقتها سلمى . وهي انما ارادت بهذه الزيارة ان تبحث ما دعا الى توجه حبيب الى هناك بالامس . ورغم وثوقها بأن سلمى مخطوبة لسليم كان الشك يساورها في وجود علاقة بينها وبين حبيب . لكنها كانت تستبعد ذلك ، وتحاول طرد هذه الوساوس من ذهنها . الى ان وصلت الى منزل سلمى ثم قابلتها بعد ان علمت من والدتها بأنها مريضة ملازمة فراشها . فقويت شكوكها ولا سيما بعد ان لاحظت ان سلمى تحاول ان تخفي عليها شيئا تضمره في قلبها . وعادت الى منزلها وقد ازدادت ضعفا على ضعف . وما كادت تصل الى غرفتها حتى ارتدت ملابس النوم وارتمت على سريرها حيث اخفت وجهها بالغطاء ، واطلقت لدموعها العنان ، لعلها تفرج بعض ما تعانيه من الغم واليأس وضيعة الآمال .

وفي الصباح التالي ، لاحظت والدتها انقباض وجهها وضعفها ، فأشارت عليها بأن تخرج معها للتنزه قليلا في احدى الضواحي ، فوافقت على ذلك . وخرجتا معا من المنزل ، وما زالتا تتمشيان حتى وصلتا الى محطة السكة الحديدية ، فوقفتا هناك قليلا وهما تتأملان جموع القادمين

الى القاهرة والمسافرين منها . وفيما هما كذلك ، لمحت ادما حبيبا داخلا الى المحطة مسرعا ، فخفق قلبها لهذه المفاجأة ، وتوقعت ان يراهما فيعرج عليهما . ولكنه انطلق في سبيله لا يلوي على شيء .

وكانت والدتها قد رأته هي الاخرى ، فقالت : « ترى ما الذي جاء بحبيب الى المحطة في هذا الصباح ، لعله جاء لاستقبال صديق له قادم من الاسكندرية ؟ » .

فسكتت ادما ولم تجب لانشغال بالها بأمر حبيب ، على انها ظلت تنتظر مع والدتها حتى يخرج من المحطة وتقف منه على سبب مجيئه ، وعلى ما اخره عن مقابلتها منذ رحلة الاهرام حتى ذلك الوقت . فطال انتظارهما حتى غادر القطار المحطة قاصدا الاسكندرية ، وخرج منها جميع من كانوا في تشييع المسافرين فيه وليس فيهم حبيبا ، فأيقنتا بأنه سافر فيه ، وشغلهما امر هذا السفر الذي لا تعلمان سببه . وكانت ادما اكثر قلقا بطبيعة الحال ، لما في قلبها من الشواغل التي لا تعلم بها والدتها . فلم تعد تستطيع المشي ولا الوقوف ، وجاهدت لاخفاء ما بها على والدتها متظاهرة بأن الصداع الشديد عاودها ، ثم عادتا الى المنزل في احدى مركبات الاجرة ، فتناولت ادما بعض الادوية المسكنة ، وأوت الى سريرها للراحة والاستجمام ، وهناك انتهزت فرصة انفرادها واشتغال والدتها عنها ببعض شؤون المنزل ، واخذت في البكاء .

* * *

لبث سليم حتى العصر وهو ينتظر رجوع حبيب من القاهرة الى منزله الذي نقله اليه في حلوان . فلما لم يرجع حبيب حتى ذلك الوقت ، نفذ صبره ولم يعد يستطيع البقاء في ذلك المنزل لحظة واحدة . ولم تكن الحمى قد فارقته بعد ، ولكنه رغم ذلك نهض وارتدى بذلته معتزما

الخروج .

وجاءت والدة حبيب الى غرفة سليم لتطمئن عليه وهي تحسب انه ما زال نائما كما تركته منذ حين ، فلما رأته مرتديا بذلته اخذتها الدهشة ووقفت تنظر اليه متسائلة : فقال لها : « لقد رأيت ان اخرج للتنزه قليلا في حديقة حلوان » .

فهمت بأن ترد عليه مشيرة بالانتظار حتى يرجع حبيب من القاهرة ويصحبه الى الحديقة ، لكنها خشيت ان تذكره بغياب حبيب فيزداد تأثره ، وآثرت ان تتركه يمضي وحده للترويح عن نفسه بعض الوقت في الحديقة. حتى اذا رجع منها استسلم للنوم بعد تناول طعام العشاء ، ولا يستيقظ حتى يكون حبيب قد عاد من الاسكندرية ومعه والدة سليم ، او يعتذر اليه بما يراه .

وغادر سليم المنزل آخذا طريقه الى الحديقة . وفيما هو يمر بمحطة السكة الحديدية هناك ، رأى القطار قادما اليها من القاهرة ، فوقف ينتظر هبوط الركاب منه لعل حبيبا ان يكون بينهم . فلما تحقق انهم نزلوا جميعا وليس فيهم حبيب ، اشتد سخطه عليه وغيرته منه على سلمى . ثم لاح له ان يستقل هذا القطار عائدا الى غرفته بالقاهرة حتى لا يجشم نفسه عناء مقابلة حبيب بعدما رابه من امره . وكان القطار قد بدأ يتحرك فسارع الى الركوب . وألقى بنفسه على احد المقاعد فيه ، وهو يتنفس الصعداء كأنما أزيح عن صدره حمل ثقيل .

ولما وصل الى غرفته . خلع بذلته وارتدى ثوب النوم ، ثم تمدد في سريره ، وقد انهكه التعب وآثار الحمى وارتيابه في علاقة سلمى بحبيب .

وعبثا حاول النوم ليريح جسمه واعصابه ، فبقي حينا يتقلب في سريره وكله قلق وحيرة واضطراب . ثم لاح له ان يكتب الى سلمى خطابا ينبئها فيه بما كشفه من غدرها ونفاقها ، فنهض وجلس الى المنضدة التي الى جوار

السرير بعد ان اغلق باب الغرفة ، واخذ يكتب اليها ذلك الخطاب قائلا فيــه :

« الى الآنسة سلمى

« اكتب اليك هذا الخطاب ولست ادري هل استطيع الاستمرار في الكتابة حتى اتمه ، أم انتقل من الدنيا الى الآخرة قبل ذلك . فأنا اكتب الان ونار الحمى تتقد في رأسي وبدني . ورعشتها تهز القلم في يــدي . ولكن هذا كله ليس شيئا يستحق الذكر بجانب ما يعتمل في صدري وقلبي.

« وقد حاولت ان امسك عن الكتابة اليك . بعدما تحققته من امرك ، ولكني خشيت ان اقضي نحبي قبل ان اطلعك على معرفتي بخبيئة نفسك ، وبكل ما حسبت انه سيخفى علي .

« آه يا سلمى !.. ولا أسفاه على الايام التي قطعتها معتقدا طهر حبك واخلاصك ، حريصا على ان اكذب ما اسمعه عنك برغم وضوح صحتــه ، وقيام الادلة والقرائن كلها ضدك .

« حتى والدتي يا سلمى ، عققتها لاجلك ، ولم استمع لما كررته من النصح لي بالابتعاد عنك ، رغم انذارها اياي بأنها لن ترضى عني ابــدا ما دمت على صلة بك ، وبأنها ستموت حسرة وغما ان ابيت الا التعلق بحبائل هواك .

« وقد ساقت الي الاقدار رجلا لم اعرفــه ولم يعرفني من قبــل . فسمعت منه اتفاقا قصة علاقته السابقة بك ، وكيف انخدع بما اظهرت له من الوفاء والاخلاص ، ولم يدخر في سبيل رضاك جهدا ولا مالا ، ثم اذا به يستكشف مصادفة انك عالقة القلب بسواه . وشد ما اسفت وتحسرت حين كشف لي الرجل عن اسم غريمه ومنافسه فيك ، فاذا هو صديق لي طالما اعتقدت وفاءه واخلاصه ، وانزلته من قلبي منزلة الاخ الشقيق ، غير عالم بأنه مثلك داهية في المكر والخداع والنفاق !

« واخيرا ، وقعت في يدي بعد خطابك الاخير ورقة بخط يدك ، تبثين فيها ذلك الصديق ، بل ذلك العدو ، ما تكنين له من شدة الحنين والاشتياق فكان ان انكشف الغطاء عن عيني ، وادركت ان ما طالما سمعته منك ، وما قرأته في خطابك الاخير ، عن المحبة الطاهرة ، وتضحيتك في سبيلها ، لم يكن سوى خداع وتضليل .

« وا أسفاه على خيبة الرجاء فيك يا سلمى ! اني مرسل اليك مع هذا بالورقة المشؤومة التي هي صك خيانتك ودليل خداعك ومكرك . تاركا لك ان تندبي المحبة الطاهرة التي طالما استحلفتني بها ، وان تذكري العبرات التي ذرفتها عند الاهرام ، والعبارات التي نمقتها في خطابك الاخير لتظهري امامي بمظهر الطهر والنبل والعفاف ، ولتوهميني بأنك ما زلت الوفية الحافظة للعهود والمواثيق .

« وا أسفاه على شدة اخلاصي وصدق محبتي لك يا سلمى . لقد اسلمت زمام قلبي لمن لا ترعى عهدا ولا ذماما !

« ولكن هذا القلب لن يشقى ويتعذب بعد اليوم . فهذه هي الحمى تندلع نيرانها في جسمي ، وما احسبها الا قاضية عليه القضاء الاخير عما قليل . وحينئذ يخلو لك الجو ، ولا يبقى هناك ما يحملك على سكب العبرات وتنسيق العبارات لتموهي بها على سليم الساذج الغر الذي اخلص لك الحب ، وعق في سبيلك والدته الحنون ، وكذب عينيه واذنيه وقلبه ليبقى معتقدا انك ملاك طاهر لا تعرفين المخاتلة والرياء .

« آه يا سلمى !.. ان والدتي المسكينة لا علم لها بما انا فيه الآن ، ولا شك في انها ناقمة غاضبة لمخالفتي نصحها وارشادها . لكني على يقين من انها لن تلبث قليلا بعد موتي حتى تلحق بي حسرة وحزنا . فاذا قدر لك ان تقابليها قبل ذلك فاستغفريها لذنبي وذنبك . ووداعا يا سلمى .. وداعا الى الابد ، والى غير لقاء !.. سليم » .

وطوى سليم الكتاب ، ثم وضعه في ظرف ، ونهض من مقعده وقد شعر بدوار شديد فعاد الى الاستلقاء في سريره ، واخذ يفكر في وسيلة يرسل بها الكتاب الى سلمى .

ولبث مستلقيا كذلك حتى الغروب ، ثم جاء الخادم فأضاء المصباح وسأله عما يريده من طعام للعشاء ، ولم يكن سليم يشعر بشهية لتناول اي طعام ، لكنه طلب قليلا من المرق ، ثم تناوله وهو ما زال شاعرا بدوار الحمى وحرارتها ، وعاد الى التمدد في سريره ، والتفكير في امره .

ولاح له ان متاعبه كلها لم تجيء الا لوجوده غريبا وحيدا في القاهرة حيث خابت آماله في الحب والصداقة ولم يلق في مهنته النجاح الذي كان يرجوه ، فأخذ يناجي نفسه قائلا : « آه .. لو انني نجوت من هذه الحمى الطاغية القاتلة . اذن لسارعت الى الرحيل من هذه البلدة الظالم اهلها ، ونقلت مكتبي الى الاسكندرية ، وهناك اجد القلب الذي لا يمكن ان يكن لي الا المحبة والحنان ، قلب والدتي العزيزة ! » .

وفي منتصف الليل ، زايلته الحمى ، وشعر بأنه استرد بعض قواه . كما شعر بأن كتابته ذلك الخطاب الى سلمى قد ازاحت عن صدره جانبا كبيرا من ثقل حيرته وتردده . وما لبث بعد ذلك قليلا حتى اخذه النعاس ، فنام لاول مرة منذ مرضه نوما عميقا هادئا لا تتخلله الاحلام المزعجة .

واستيقظ في الصباح وهو احسن حالا ، فارتدى بذلته ، ووضع في جيبه الخطاب الذي كتبه الى سلمى ، ثم هبط الشارع وركب عربة مضى بها حتى بلغ اول العطفة المؤدية الى منزل سلمى، فأمر السائق بالوقوف هناك ، وكلفه ان يصعد الى المنزل ويسأل عن الخادمة العجوز سعيدة ويدعوها اليه .

وبعد قليل جاءت سعيدة ، فما كادت عيناها تقعان على سليم وهو جالس في العربة حتى خفت الى استقباله مرحبة ، وقبلت يده متظاهرة

بالشر والحبور لرؤيته . فقال لها : « لي عندك رجاء فهل انت على استعداد لاجابته ؟ » .

فقالت : « انني خادمتك المطيعة يا سيدي ، ورهن اشارتك في كل ما تطلب ، ولو كلفني ذلك حياتي » .

فربت كتفها شاكرا ، واخرج من جيبه خطابه الى سلمى وناولها اياه قائلا : « كل ما ارجوه منك هو ان توصلي هذا الخطاب الى سلمى يدا بيد ، دون ان يعلم بذلك اي احد ، واذا سألك احد من ابويها عمن خرجت لمقابلته الآن . فلا تذكري اي شيء عني ، فهل فهمت ؟ » .

ثم نفحها ببعض النقود ، فتمنعت عن اخذها مؤكدة ان رضاه عنها هو كل ما تتمناه ، لكنه اصر على ان تأخذ تلك النقود فأخذتها ، وعاد هو في العربة من حيث اتى . فلما وصل الى محطة السكة الحديدية ، تذكر ما فكر فيه امس من السفر الى الاسكندرية ، وخشي ان تعاوده الحمى بعد الظهر فتقعده عن تحقيق هذه الرغبة ، فهبط من العربة ونقد سائقها اجره، ثم دخل المحطة فابتاع تذكرة سفر الى الاسكندرية ، ثم اشترى بعض الصحف وجلس يتسلى بمطالعتها في القطار .

١١

قلبان يحترقان

كانت سعيدة منذ مرض سلمى تبالغ في التقرب اليها والتظاهر بالتفاني في خدمتها ، وهي على يقين من ان مرضها ليس الا نتيجة لانقطاع سليم عن

زيارتها . وكانت تتوقع ان تكاشفها سلمى بأمرها بعد ان وثقت بها، وحينئذ تنتهز هذه الفرصة لتحملها على اغفال شأن سليم وقطع علاقتها به الى الابد، لتمهد بذلك لتحقيق رغبة سيدتها وردة في تزويجه بابنتها اميلي .

على ان سلمى رغم ثقتها بسعيدة واستئناسها بالتحدث معها بقيت حريصة على كتمان امرها مع سليم ، ومضت الايام وسعيدة لا تجد الفرصة للتحدث معها في شأنه .

فلما جاء سليم اعطاها ذلك الخطاب لتسلمه لسلمى ، خشيت ان يكون فيه ما يعيد العلاقة بين الحبيبين الى ما كانت عليه من الصفاء ، ولا يبقى لها بعد ذلك سبيل الى النجاح في مهمتها . فلما عادت الى المنزل ، ابقت الخطاب معها دون ان تسلمه لسلمى . ثم غادرت المنزل بعد قليل ، وتوجهت مسرعة الى منزل داود صديق سيدتها وردة لكي تطلعه على ذلك الخطاب وتستشيره فيما تصنع به .

ولاحظت سعيدة على داود دلائل القلق والارتباك منذ وقعت عيناها عليه بعد وصولها الى منزله ، وسألته في ذلك فقال لها : « نعم اني في قلق شديد : لاني تلقيت الآن خطابا من الاسكندرية بوساطة البريد ، فلما فضضته وجدته موجها الى سليم من والدته ، تدعوه فيه الى موافاتها في الاسكندرية في اقرب وقت مستطاع » .

فقالت سعيدة : « ان سيدتي وردة هي التي تكتب بخطها خطابات والدة سليم ، فهل هذا الخطاب ليس بخطها ؟ » .

قال : « انه بخطها من الداخل والخارج كالمعتاد ، وهذا هو الذي يقلقني » .

فلم تفهم سعيدة مراده واستوضحته الامر فقال لها : « انني اخشى ان تكون سيدتك قد كتبت خطابين في وقت واحد ، احدهما لسليم باسم والدته وهو هذا الذي تلقيته الآن ، والاخر لي لكنها اخطأت ايضا

ووضعته في الظرف الذي كتبت عليه عنوان سليم . ولعل فيه من الاسرار ما كان يجب الا يعلم به سليم » .

فقالت سعيدة له : « هذه ظنون ووساوس لا ينبغي الاسترسال فيها، ولن تمضي ايام معدودة حتى يتضح الامر ونقف على حل هذا اللغز . ومن يدري فلعل سيدتي ارسلت اليك صورة من الخطاب الذي ارسلتــه الى سليم باسم والدته لتكون على علم به . وعلى كل حال قد جئتك الآن بما هو اهم . فدع تلك الظنون والاوهام جانبا ، لكي تشير علي بما يجب ان اصنعــه » .

ثم اخرجت الخطاب الذي تسلمته من سليم وقالت : « لقد جاء سليم منذ ساعة في عربة وقف بها قرب منزل سلمى ، ثم ارسل السائق يدعــوني اليه وسلمني هذا الخطاب كي اسلمه لسلمى يدا بيد ، وحذرني ان اذكر عنه شيئا لاي احد سواها . ثم انصرف في العربة التي جاء فيها وعلى وجهه آثار الضعف والانقباض » .

فتناول داود الخطاب وفضه واخذ في قراءته ، وما اتمه حتى تنهــد وتهلل وجهه فرحا وقال لسعيدة : « لقد ساق الينا الحظ بهذا الخطاب اكبر خدمة ، ولا يكاد يصل الى يد سلمى وتطلع على ما فيه حتى يتحقق مــا نرجوه من نجاح مهمتنا ، ولا يبقى هناك اي امل في عودة العلاقات الودية بين سلمى وسليم » . ثم شرح داود لسعيدة ما تضمنه خطاب سليم ، واعاد الخطاب اليها بعد ان لصق ظرفه كما كان ، وامرها ان تعجل بتسليمه الى سلمى .

★ ★ ★

كانت والدة سلمى قد لاحظت خروج سعيدة من المنزل ، فلما وجدت ان غيبتها طالت اكثر من العادة قلقت عليها ، وما كادت تراها عائدة بعــد

ساعة حتى سألتها عن سبب خروجها وغيابها ، فتنهدت سعيدة وقالت لها : « ان المخدم ارسل يدعوني اليه ، واخذ يتهددني لاني التحقت بالخدمة في منزلكم دون علمه ، فذكرت له اني لا اعمل خادمة عندكم ، ولكنكم رثيتم لحالي وعطفتم على شيخوختي فآويتمــوني في داركم واوسعتمــوني برا واحسانا . لكنه لم يصدقني وعاد يهددني بأنه يعرف كيــف ينتقم مني . فلم اعبأ بتهديده ، وتركته يسب ويتوعد ورجعت الى المنزل مسرعة لاكون في خدمة سيدتي سلمى وخدمتكم جميعا » .

فصدقتها والدة سلمى واعجبت باخلاصها وحسن تخلصها من المخدم، وقالت لها : « هكذا كل المخدمين ، ولكن لا يهمك هذا الامر » .

ثم سارعت سعيدة الى غرفة سلمى ، فوجدتها مضطجعة في سريرها وقد امتقع لون وجهها وذبل جمالها ، وعيناهــا مغرورقتان بالدمــوع . فادركت ان هذا بسبب مقاطعة سليم لها وعدم رده على خطابها الاخير اليه، لكنها تجاهلت واخذت تعتذر من تخلفها عن خدمتها بعض الوقت وتسألها عن صحتها فقالت سلمى : « اشعر بأني أسوأ حالا مما كنت ، والحمد لله على كل حال » .

فتظاهرت سعيدة بالتأثر الشديد ، ثم اخذت تجاذبها الحديث الى ان قالت لها : « يلوح لي يا سيدتي ان مرضك ليس كأمراض اكثر الناس » . وتنهدت .

فعجبت سلمى من هذه العبارة ونظرت اليها متسائلة ، فقالت سعيدة : « لو انه كان مرضا عاديا لافاد الدواء في علاجه ، ولعله مرض نفساني سببه القلق واضطراب الفكر » .

فخفق قلب سلمى وكادت تبكي لانطباق هذا الوصف على حالتها . غير انها امسكت نفسها وقالت متجاهلة : « ان الشفاء بيد الله يا خالتي ، وما قلقي واضطراب فكري الا بسبب مرضي » .

فمالت سعيدة عليها وربتت وجهها متلطفة وهمست في اذنها قائلة : « لست ألومك على تكتمك يا بنيتي، فهكذا كل الفتيات المهذبات العاقلات. ولكنك لا تجهلين اننا معشر العجائز لنا من خبرتنا وتجاربنا ما ليس لغيرنا، كما انك تعلمين مدى محبتي لك ورغبتي في سعادتك ؛ فلو انك كشفت لي سبب قلقك واضطرابك ، فقد استطيع ان انفعك بمشورتي » .

فتنهدت سلمى ، وهمت بأن تصرح بحقيقة امرها لسعيدة ، ثم غلب عليها حياؤها فأمسكت وسكتت .

وانتهزت سعيدة هذه الفرصة فواصلت همسها قائلة : « أن ما يراه الفتيات شيئا خطيرا يدعو الى الحزن واليأس، قد يكون في كثير من الاحيان شيئا تافها لا يدعو الى شيء من ذلك . وقد طالما وقعنا في مثل ذلك في عهد الشباب ، فكانت الدنيا لا تسع احدانا لفرط فرحها وسرورها حين يصرح لها احد الشبان بأنه احبها وعلق بها آماله في المستقبل ؛ ثم تروح على هذا الاساس تبني بخيالها قصورا عالية ، وتكرس وقتها كله للتفكير في فتى احلامها المختار الذي ساقته اليها الاقدار . وما هي الا ايام او شهور ثم تتكشف لها الحقيقة ؛ فاذا بها كانت ضحية للوهم والخيال ، واذا بذلك المحب المدنف الولهان قد تخلى عنها لاتفه الاسباب ؛ او لاسباب مختلفة ملفقها لكي يتخلص من عهوده معها ووعوده لها ؛ ليعيد تمثيل الرواية مع فتاة اخرى » .

وكانت سلمى تصغي الى كلام سعيدة اصغاء تاما ، وتراه منطبقا كل الانطباق على علاقة سليم بها . وبرغم ثقتها باخلاص سعيدة وتعقلها ، لم تستطع ان تتغلب على حيائها لتكاشفها بأمرها ، واكتفت بتصعيد الزفرات.

وفيما هما كذلك سمعتا طرقا على باب المنزل ، فأجفلت سلمى اذ تذكرت زيارات سليم السابقة ، وان كان املها ضعيفا في ان يكون هو القادم . وخرجت سعيدة لترى من الطارق ، ثم عادت بعد قليل الى سلمى

وقالت لها : « لقد جاءت الآنسة ادما ومعها ابوها وامها ، وهم الان مع سيدتي والدتك في حجرة الاستقبال » .

ثم اقتربت منها وهمست في اذنها قائلة : « وهناك زائر آخر حسبته قدم معهم . ثم تبينت انه جاء وحده ولم يشأ الدخول بل اكتفى بأن أعطاني خطابا لاسلمه لك يدا بيد » . قالت ذلك وهي تخرج خطاب سليم وتتلفت نحو باب الغرفة كأنها تحاذر ان يراها احد .

فجف ريق سلمى في حلقها . وشعرت بأن قلبها يكاد يقفز من موضعه، وطفح العرق غزيرا من جبينها . وتناولت الخطاب من سعيدة بيد مرتجفة ، وقالت لها والدموع تنهمر من عينيها : « انه من سليم ، أليس كذلك ؟ » . قالت : « نعم » .

ثم تسللت سعيدة خارجة من الغرفة واغلقت بابهـا من الخـارج . فأدركت سلمى انها صنعت ذلك لتتيح لها قراءة الخطاب قبل ان تدخـل عليها ادما وامها لعيادتها . وازدادت اعجابا بذكائها وتقديرا لاخلاصها ، غير عالمة بما تدبره لها من المكايد في الخفاء .

• • •

ما كادت سلمى تطلع على خطاب سليم حتى اشتد ضعفها واضطرابها، فبردت اطرافها واخذتها الرجفة حتى سقط الخطاب من يدها على الوسادة ، وطارت الورقة الصغيرة الملحقة به ووقعت على الارض . وهي الورقة التي وجدها سليم بين صفحات الرواية في منزل حبيب بحلوان ، وحسب انهـا مرسلة اليه من سلمى .

ولم تتمالك عواطفها المهتاجة فانفجرت باكية واخذت تلطم وجههـا قائلة : « وافضيحتاه !.. وا أسفاه .. ويل للمحتالين الخادعين الملفقين ! » .

وكانت سعيدة واقفة بباب الغرفة من الخارج ، فسارعت الى فتحـه

ودخلت متظاهرة بالارتياع وهي تقول : « ماذا بك يا سيدتي ؟ لا بأس عليـك ! » .

فانتبهت سلمى لنفسها ، وارتمت على سريرها وهي تواصل التـأوه والانين ، فقالت لها سعيدة : « هدئي روعك يا سيدتي وخفضي من صوتك حتى لا يسمع في غرفة الاستقبال وفيها والدتك مع ادما وابويها » .

ولكن سلمى لم تستطع امساك نفسها عن البـكاء والعويـل لفرط تأثرها ، ثم اخذت الخطاب الملقى على الوسادة ووضعته في الظرف دون ان تفطن الى الورقة الاخرى التي سقطت على الارض ، وبعد ان تأملته قليلا دسته تحت حشية السرير ، ثم تلفتت نحو باب الغرفة فلما وجدته مغلقـا ، وسعيدة واقفة بجانب السرير وعليها امارات التأثر الشديد ، استوت جالسة فيه ، واخذت تمسح دموعها وتعض على نواجذها من الغيظ قائلة : « آه يا سليم .. أهكذا آخرة الاخلاص والوفاء ؟! » .

فبادرت سعيدة بالانحناء عليها واخذت تربت وجهها وكتفيها متظاهرة بأنها تغالب الدموع وقالت : « هوني عليك يا سيدتي ، ان صحتك في حاجة الى الهدوء » . ثم جاءتها بكوبة ماء وطلبت اليها ان تشرب قليلا ، ففعلت واضطجعت في سريرها وهي تغالب عواطفها ، فهمـت بها سعيدة وقبلتـها قائلة : « ان من كانت في مثل عقلك ونضجك لا ينبغي لها ان تنساق مـع تيار العواطف ، وتقتل نفسها كمدا وحزنا » . ثم جلست على حافة السرير عند قدمي سلمى ،وواصلت مواساتها والترفيه عنها محاولة خلال ذلك ان تحملها على اليأس من حب سليم ، والاعتقاد بأن الشبان جميعا لا امان لهم ولا وفـاء .

وفيما هما في ذلك طرق باب الغرفة ، ففتحته سعيدة . ودخلت ادمـا وامها لعيادة سلمى ، وقد عجبا لما لاحظاه عليها من النحـول والذبـول واصفرار الوجه كأنها مريضة منذ اعوام . فقبلتها كل منهما ، ثم جلستا على

مقعدين بجانب سريرها ، واخذتا تجاذبانها اطراف الاحاديث عن اعراض مرضها واسبابه ومدى اثر الدواء الذي وصفه لها الطبيب . وما الى ذلك وهي متوسدة لا يظهر غير وجهها من تحت الغطاء .

ولاحت من ادما التفاتة الى ما تحت المنضدة المجاورة للسرير ، فوقعت عينها على ورقة يشبه لونها لون الورقة التي كانت قد كتبتها وارسلتها الى حبيب في البريد . فخفق قلبها ، وانتهزت فرصة خروج سعيدة من الغرفة وانشغال امها وسلمى بالحديث والتقطت تلك الورقة خفيــة ، فما كادت عيناها تقعان على الخط الذي كتبت به حتى كادت تصرخ من الدهشــة والجزع اذ تبينت انها هي خطابها السالف الذكر الى حبيب . وصورت لها وساوسها ان حبيبا هو الذي جاء بخطابها الى سلمى وتركه عندها ، فاشتعل قلبها غيرة ، وأنبها ضميرها على التسرع بمكاتبة حبيب وعلى تصديق دعواه في الحب والاخلاص . ولم تتمالك نفســها فأخفت الورقــة في جيبها . ثم اعتمدت رأسها بيديها واخذت تجهش بالبكاء .

وحسبت امها ان بكاءها ليس الا تأثرا برؤية صديقتها سلمى مريضة. وكذلك اعتقدت سلمى نفسها ، فدمعت عيناها والتفتت الى ادما قائلة : « أتبكين يا ادما ؟. لا . لا . لا ينبغي ان تبكي . ان حالتي تستحق الرثاء، وانا اشكر لك عاطفتك الرقيقة هذه . ولكن عليك ان تتجلدي وتصبري فليس في البكاء من فائدة ! » .

فلم تزدد ادما الا بكاء وغيرة ، اذ فهمت من عبارة سلمى هذه مــا رجــح ظنها .

وفيما هي كذلك سمعت طرقا على الباب الخارجي للمنزل ، ثم فتح باب الغرفة ودخلت ام سلمى وخلفها حبيب ، فما كادت تراه وهي في تلك الحال حتى علا وجهها الاحمرار ، وبردت اطرافها ولم تقو على النهوض لتخاذل ساقيها وارتجافها ، ولم يكن هو يتوقع ان يجدها هنــاك فبــدت

الدهشة في وجهه وارتبك فلم يجد ما يقوله لها ، واكتفى بأن حياها تحية خاطفة ، ثم انصرف بوجهه عنها الى سلمى واخـذ يسألها عن صحتها ويواسيها متمنيا لها عاجل الشفاء .

وهنا لم يبق لدى ادما شك في انه لا يحبها ، وانه كان يسخر منها حين اوهمها بذلك ، فازداد اضطرابها وغيظها ولم يسعها الا ان تتحامل على نفسها وتتسلل خارجة من الغرفة والدموع تنهمر من عينيها .

ولم تشأ ان تدخل غرفة الجلوس اذ تذكرت ان اباها في انتظارها ووالدتها هناك . وخجلت ان تبدو امامه وهي في مثل تلك الحال من الجزع والاضطراب ، فجلست على مقعد امام الغرفة ، واطلقت لدموعها العنان ، وقلبها تتنازعه عوامل الحب والغيرة والندم والغيظ وحب الانتقام .

وبعد قليل ، خرج حبيب من الغرفة ومعه والدة سلمى . ومرا بها دون ان يشعرا بوجودها هناك ، وانتحيا ناحية وقفا يتهامسان فيها ، فزادها ذلك شكا في براءة العلاقة بين حبيب وسلمى . ولم تطق البقاء في مجلسها فنهضت محنقة ودخلت غرفة الجلوس ، وجلست متجلدة في ناحية منها تجاه ابيها ، دون ان تنبس بكلمة .

ولم تمض دقائق حتى وافتهما والدتها ، ثم والدة سلمى ومعها حبيب . وجلس الجميع يتبادلون الحديث عن مرض سلمى وتمنياتهم لها بعاجل الشفاء . ثم نهض حبيب وانصرف بعد ان حياهم مودعا . ولاحظت ادما انه لم ينظر اليها ولم يوجه لها اية كلمة . فتحققت صحة ظنونها واتهاماتها . فغلا الدم في عروقها ، ولم تستطع صبرا على كبت غيظها وحزنها . فتظاهرت بتوعك صحتها واستأذنت والديها في ان تسبقهما الى المنزل لتعتكف وتستريح ، ثم حيت والدة سلمى وانصرفت مسرعة لا تلوي على شيء .

* * *

كان حبيب قد وصل الى منزله في حلوان ومعه والدة سليم ، ففوجئا بأن سليما غادر المنزل عند الاصيل ليتمشى بعض الوقت في الحديقة العامة، لكنه لم يعـد .

ونزلت هذه المفاجأة نزول الصاعقة على قلب امه وعلى قلب حبيب ، وعبثا حاولت والدته وشقيقته ان تهونا الامر على والدة سليم ، وان تقنعاها بأنه عوفي من مرضه ولعله عاد الى القاهرة لامر عاجل يتعلق بعمله ولا يلبث ان يعود . واخيرا رضيت ان تنتظر هناك ريثما يعود حبيب الى القاهرة ويأتي بسليم منها .

وسارع حبيب الى القاهرة ، وتوجه الى غرفة سليم فلم يجده فيها ، لكنه علم بأنه امضى فيها الليلة السابقة . فانصرف من هناك الى البحث عنه، فلم يجده في المكتب ولا في غيره من الامكنة التي يغشاها . ثم لاح له ان يسأل عنه في منزل سلمى . فمضى الى هنـاك وهـو في منتهى القلـق والاضطراب ، وحسبت والدة سلمى انه جاء ليسأل عن صحتها ، وقادتـه الى غرفتها كي يعودها ، ففوجىء بوجود ادما ، ولم يستطع لشدة اضطرابه ان يحسن لقاءها ،فتشاغل بالحديث مع سلمى والاستفسار عن صحتها . ثم انتهز فرصة خروج ادما وخرج ومعه والدة سلمى مودعة ، فسألها عن سليم ولما علم بأنه لم يزرهم منذ ايام ، لم يشـأ ان يخبرهم بأمر مرضـه واختفائه لئلا يزيد في قلقهم ، وزعم انه يبحث عنه لشأن خاص ، ولعلـه سافر الى خارج القاهرة لعمل يتعلق بمهنته . ثم غادر المنزل لمواصلة البحث عن سليم وقد اشتد قلقه عليه خشية ان يكون يأسه قد دفعه الى الانتحار . ولم تكن ادما تدري شيئا من ذلك كله فتوهمت ان حبيبا تعمد تجاهلهـا واتخذت من ذلك قرينة تعزز اتهامها اياه .

ولما يئس حبيب من وجود سليم في القاهرة ، عاد الى حلوان راجيـا ان يجده سبقه عائدا الى هناك ، لكنه ما كاد يصل الى المحطة حتى لمـح

والدته ووالدة سليم في انتظار القطار ، فسقط في يده . ولم يجد هو ووالدته تعليلا مقنعا لاختفاء سليم . وخيل لوالدته ان حبيبا ووالدته يعلمان سبب اختفاء ولدها لكنهما يكتمانه اشفاقا عليها ، فازداد جزعها ولم تعد تستطيع صبرا وتجلدا ، فأخذت تلطم وجهها وتصرخ مولولة لعظم فجيعتها بفقده ، وهمت بيد حبيب محاولة تقبيلها وهي تقول : « لا تكتم عني شيئا ، قل ان سليما مات او انتحر .. آه يا ولدي وفلذة كبدي . لقد كنت انا سبب فقدك ، فليتني مت قبل هذا ، او ليتني لم اعارض رغبتك » . والتف حولهم جمهور كبير من الهابطين من القطار والصاعدين اليه واستمرت في لطمها وندبها وعويلها حتى تحرك القطار عائدا الى القاهرة فتعلق به حبيب وهو يقول لها : « ها اني راجع الى القاهرة للبحث عنه ولن ارجع الا وهو معي ان شاء الله ».

ولم يسع والدة سليم الا ان تعود الى منزل حبيب مع والدته في انتظار ما يكون . ولكنها لم تنقطع عن النواح ، ولم ترض ان تذوق اي طعـــام .

* * *

وصل سليم الى الاسكندرية وهو في حالة يرثى لهـا من الضعف والاضطراب ، وكان كلما حاول ان يتناسى سلمى وتصور ما وقف عليه من علاقتها بصديقه حبيب هاجت اشجانه وسخط على الحب والصداقة ، غير انه كان لا يلبث قليلا حتى يعود بذاكرته الى سابق عهده بسلمى وحبيب ، وما لمسه فيهما من التفاني في المودة والوفاء . وهكذا لبث طول الطريق من القاهرة الى الاسكندرية نهبا لهذه العوامل المتضاربة حتى كاد عقله ان يطير من رأسه لفرط تحيره وتردده .

واستقل عربة أوصلته الى المنزل الذي تقطنه والدته مع شقيقه فؤاد

وقرينته . فلما قرع الباب فتحته خادم لا يعرفها وسألته عمن يريد ، فحسب ان والدته وشقيقه انتقلا من ذلك المنزل ، وسأل الخادم : « أليس هـذا منزل الخواجه فؤاد ؟ » . فقالت : « نعم ولكنه خرج منذ قليل ولن يعود قبل ساعتين » .

فقال لها : « أليست والدته او قرينته هنا الآن ؟ » .

فسكتت قليلا وهي تمعن النظر فيه ، ثم قالت : « ان سيدتي قرينته هنـا » .

وما اتمت جملتها حتى كانت قرينة فؤاد قد جاءت لترى من الطارق الذي اطالت الخادم الحديث معه ، فلم تعرف سليما اول الامر لشدة ضعفه وتغير هيئته . ثم عرفته فبادرت باستقباله مرحبة والدهشة تكاد تعقـد لسانها ، فدخل المنزل وساقاه لا تقويان على حمله وسألها : « اين والدتي ؟ أليست هنا ؟ » .

فدعته الى الجلوس كي يستريح ، وقالت له : « انها سافرت الى القاهرة ، لكي تراك ، وهذا انت قد جئت لكي تراها . أليس هذا مـن عجائب الاتفاق ؟ » .

فأخذته الدهشة وقال : « سافرت الى القاهرة لتراني ؟ كيف ذلك ؟ ومتى سافرت ؟ » .

فقالت : « سافرت في الليلة الماضية مع صديقك حبيب » .

قال وقد ازدادت دهشته : « اي حبيب ؟ هذا غير ممكن . ما الذي يجيء بحبيب الى الاسكندرية الآن ؟ » .

فقالت : « لقد عدنا الى المنزل مساء امس انا وفؤاد ، فوجدناه هنا مع والدتك ، وعلمنا منه انك كنت مريضا وما زلت في طور النقاهة . وبعد ان تناولنا العشاء جميعا ، اصطحب والدتك وعاد بها الى القاهرة في قطار نصـف الليل .

فسكت سليم حائرا ، ولم يستطع الاهتداء الى سبب مجيء حبيب . واخيرا دعته قرينة اخيه الى النهوض لغسل رأسه وتبديل ثيابه . فنهض لذلك متثاقلا وهو لا يستطيع اخفاء ما به من الدهشة والشك . وما كاد ينتهي من ذلك حتى عاد شقيقه فؤاد من عمله لتناول الغداء في المنزل . فتعانقا طويلا ، ثم جلسوا الى المائدة جميعا ، وهم يتبادلون الحديث حول ذلك الاتفاق العجيب ، وسليم اشد دهشة لانه لم يكن يتوقع أن تزوره والدته في القاهرة بعد ان انذرته بسقاطعته الى الابد في خطابها الاخير ، ولانه لم يهتد الى سبب مجيء حبيب اليها دون علمه واصطحابه اياها الى القاهرة .

وبعد الغداء ، طلب فؤاد الى سليم ان يتمدد قليلا في الفراش للراحة من عناء السفر . فوافق على ذلك لكي يخلو الى نفسه ويعاود التفكير في الامر .

وقبيل المغرب ، دخل فؤاد عليه غرفة النوم لايقاظه ، فاذا بالحمى قد عاودته ، فارتفعت درجة حرارته ، واخذته الرعشة ، وتصبب عرقه غزيرا . فجلس بجانبه يسأله عما به ويهون عليه الامر . ثم دعا زوجته وطلب اليها ان تكلف السيدة وردة باستدعاء طبيبها المعروف ببراعته لفحص سليم ومعالجته ، فسارعت الى اجابة هذا الطلب .

وبعد قليل عادت زوجة فؤاد ومعها الطبيب وسيدتان لم يعرفهما سليم ، فاقتربت كبراهما منه وهي في ثياب تنم عن الثراء والتبرج ، وقبلته بحنان قائلة : « لا بأس عليك يا ولدي . لقد جزعنا جميعا حين علمنا بأنك مريض في القاهرة ، وكنت مصرة على مصاحبة والدتك في سفرها للاطمئنان عليك » . ثم التفتت الى الطبيب وكان قد شرع في فحص سليم وقالت له : « ارجو يا دكتور ان تبذل اقصى عنايتك بعزيزنا سليم ، فهو عندي في معزة اميلي ابنتي » . قالت ذلك وهي تشير الى الفتاة التي دخلت معها . فعلم

سليم انها ابنتها ، وعجب لمبالغتها في الاحتفاء به ، ومعاملته كأنها تعرفه منذ عهد بعيد .

وبعد ان انتهى الطبيب من فحص سليم ، التفت الى تلك السيدة وقال : « اطمئني يا سيدتي، انها حمى بسيطة لا خطر منها، ولكن يحسن ان يصحب تناول الدواء الذي سأصفه الآن ، العناية بتبديل الهواء ، او الاقامة بمكان هواؤه نقي منعش مثل منطقة الرمل » .

فقالت : « هذا امر سهل جدا يا دكتور ، وانت تعرف ان منزلنا في الرمل يمتاز بحسن الموقع . وبما ان والدته ليست هنا ، فان واجبي ان اقوم مقامها ، وسأنتقل بنفسي معه الى منزلنا ذاك لاشرف على خدمته وتمريضه حتى ترجع والدته من القاهرة بسلامة الله » .

ثم التفتت الى قرينة فؤاد وقالت لها : « ان منزلي ومنزلكم واحد كما تعلمين ، وانت مشغولة بالاولاد وتربيتهم ، اما انا فأستطيع تخصيص وقتي كله للقيام بهذه المهمة » .

فأعجب سليم بلطف السيدة واخلاصها وكرمها ، ثم رآها تودع الطبيب وتشير الى ابنتها ان تكلف بعض الخدم باعداد منزل الرمل للانتقال اليه بعد قليل ، فخاطبها لاول مرة قائلا وفي وجهه علامات التأثر الشديد : « اننا جميعا عاجزون عن شكرك يا سيدتي ، وليس في الامر ما يدعو الى تعجيل الانتقال » .

فقالت له : « انني لم اقم الا ببعض الواجب علي ، فوالدتك اعز علي من اخت شقيقة ، وانت عندي بمنزلة وحيدتي هذه . (واشارت الى ابنتها اميلي) . وكن على يقين من ان وجودك عندنا هو اسعد ما نتمناه . ومتى عادت والدتك بالسلامة فستخبرك كما يخبرك عزيزنا فؤاد وقرينته بأنه ليس بيننا اي تكليف » .

ولم يسع فؤاد وقرينته الا ان يشكراها بدورهما على صدق مودتها

ومروءتها ، تاركين امر الانتقال او البقاء لرغبة سليم ، فقال موجها الكلام الى وردة: «انني ولا شك يسعدني ان ألبي هذه الدعوة الكريمة المشكورة ولكنني الآن ما زلت في نوبة الحمى ، وربما كان في الانتقال ما يزيد في وطأتها ، فلننتظر الى غد ، ثم يفعل الله ما يشاء .

فقالت وردة : « لقد سألت في ذلك صديقنا الطبيب ، فأكد لي الا خطر من الانتقال الآن على ان يكون في عربة مغلقة » .

ثم التفتت الى ابنتها وقالت لها : « هل كلفت الخدم باعداد منـزل الرمـل ؟ » .

فقالت : « نعم ، وقد ذهب احدهم لاحضار مركبة مغلقة حسب امر الطبيب » . ثم اطرقت وقد توردت وجنتاها خفرا وحياء . فلم يجد سليم وجها للمعارضة . وسكت متنهدا اذ ذكرته رؤية اميلي بسلمى وما كان من اعجابه بكمالها وادبها وحيائها . وكادت الدموع تنحدر من عينيه تأثرا لولا ان جاء احد خدم وردة وقال لها : « ان المركبة بالباب يا سيدتي » . فنهضت وتعاون الجميع على توصيل سليم الى المركبة وادخاله فيها ، حيث يجلس بين شقيقه فؤاد والسيدة وردة ، وسارت المركبة ، وخلفها مركبة اخرى فيها اميلي وزوجة فؤاد .

وبعد حوالي نصف ساعة وقفت المركبتان امام منزل جميل فخم ، يقع على مرتفع مشرف على البحر ، فنزل الجميع ودخلوا وسليم بينهم ، حيث جلسوا بعض الوقت في غرفة فخمة الاثاث والرياش معدة للاستقبال ، ثم اشارت وردة بالانتقال الى الغرفة التي خصصت لنوم سليم ، فانتقلوا اليها، وامضوا وقتا آخر محيطين بسريره ، يلاطفونه بمختلف الاحاديث ، ما عدا اميلي فقد بقيت ساكتة يبدو عليها الاستحيـاء ، وان لاحظ سليم انهـا تختلس النظر اليه بين آونة واخرى ثم تعاود اطراقها او تتشاغل بالاشراف على اعمال الخدم وهم يعدون العشاء .

واخيرا ، انصرف فؤاد وقرينته عائدين الى منزلهما بعد تناول العشاء. ولم يبق مع سليم في غرفته سوى وردة وابنتها ، وكانت نوبة الحمى قـد زايلته وشعر بتجدد قواه ، فأخذ يسرح طرفه في الافق من النافذة المطلـة على البحر امامه ، متحاشيا النظر الى اميلي كيلا يزيد في خجلها ، ولئـلا يثير اشجانه بتذكر سلمى .

وفيما هو في ذلك نهضت وردة من مقعدها بجانب السرير ، وامسكت زجاجة الدواء الموضوعة على منضدة فخمة تحت النافذة المذكورة فصبت قليلا منها في قدح ، وعادت تحمله الى سليم ، فتناوله من يدها وشرب ما فيه ثم رده لها شاكرا ، فقالت : « اذا شئت ان تزيد في سعادتنا وسرورنا لوجودك معنا ، فلا تعد مرة اخرى الى مثل هذه العبارات . فأنت هنا في منزلك مع والدتك وشقيقتك ، وليس عليك الا ان تأمر وعلينا السمـع والطاعـة » .

فاغرورقت عيناه بالدموع لفرط تأثره بهذه المجاملة ، ولاحظت اميلي ان العرق يتصبب من وجهه ، فنهضت وجـاءت بمنديل كبـير من الحرير الابيض ، واخذت تمسح به وجهه في ترفق وحنان ، فضاعف هذا تأثره ولم يستطع امساك دمعة انحدرت على خـده ، وخشي ان يتكلم ليشكرهـا فتخنقه عبراته ، فاكتفى بأن ضمن نظراته اليها كل معاني الشكر والاعتراف بالجميل ، ثم عاد الى تحاشيه النظر اليها لما لاحظه من ازدياد خجلها حتى تضرجت وجنتاها بالحمرة .

على انها ما لبثت قليلا حتى جاءت بمروحة لطيفة ووقفت تروح بها على وجهه ، فاحمر وجهه هو حياء ، ونظر اليها وعلى فمه ابتسامة الشكر قائلا : « لا داعي لتعبك يا عزيزتي » .

فقاطعته والدتها قائلة : « ان اميلي بمنزلة شقيقتك ، فدعها تقـم بالواجب عليها ، لان هذا يسعدها ولا شك » .

ولم يسعه الا السكوت ، واخذ يصغي لما تحدثه به وردة عن علائق المودة الخالصة التي تربطها وابنتها بوالدته ، عن تمنياتهن الطيبة المشتركة له قبل رجوعه من القاهرة ؛ بينما قلبه يخفق بشدة ، ولا سيما حين كانت تحين منه التفاتة الى اميلي وهي تروح له فتقع عيناه على يدها البضة تزينها الاساور الذهبية المرصعة بالماس ، او على وجهها المتورد وقد ازدادت حمرته خجلا من نظراته ، وتأثرا بحركة يدها المستمرة في الترويح له .

وكانت صورة سلمى تراود خياله خلال ذلك ، فلا يسعه الا ان يجاهد نفسه كي يبعدها ، مستنكفا ان يفسح لها مكانا بجانب صورة اميلي التي اسرته بتواضعها ولطفها وتفانيها في خدمته رغم انه لم يرها من قبل .

ومضى الوقت دون ان يشعر بمضيه الا حين دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فأراد ان يستأذنهما في ان تتركاه مشكورتين لينام ، لكنه خجل وسكت . واذا باميلي تقول : « اظن انه يستحسن ان نتركك الآن تأخذ حاجتك من النوم ؟ » .

فأعجب بفطنتها وظرفها وقال : « الواقع اني لا اريد أن تفارقاني لحظة واحدة ؛ ولكني اشعر بأني اتعبتكما كثيرا » .

فافتر ثغرها عن ابتسامة كبيرة ونظرت اليه وقالت : « اننا لم نشعر بأي تعب ، بل شعرنا على عكس ذلك بمنتهى الغبطة والسعادة لاطمئناننا على صحتك . ولولا خشية ان يثقل عليك وجودنا اثناء نومك ، ما فارقناك قط . على اننا سنبقى قريبا منك في الغرفة المجاورة » .

ثم اشارت الى اميلي فنهضت وعاونتها على تنظيم سريره وتغطيته ثم همست وقبلته وقالت : « تصبح على خير يا بني » . وخرجت تتبعها اميلي . وقبل ان تغلق هذه باب الغرفة خلفها ، تريثت قليلا وهي تنظر اليه ؛ فلما نظر الى هذه الجهة وتلاقت نظراتهما ابتسمت له واحنت رأسها مودعة ، ثم اغلقت الباب بهدوء .

١٢

حب جديـد

استيقظ سليم في صباح اليوم التالي ، بعد نوم عميق مريح ، وقـد شعر بأنه استعاد صحته . وما كاد يفتح عينيه حتى وقعتا على اميلي وهي واقفة بجانب سريره ، وهي بثياب البيت ، وفي يدها المروحة تروح له بها . فلما تلاقت نظراتهما ابتسمت له وقالت : « صباح سعيد يا عزيزي . كيف حالك الآن ؟ » .

فاحمر وجهه حياء، واستوى جالسا في السرير ، ثم مد يده واخـذ المروحة من يدها قائلا : « اسعد صباحك يا عزيزتي . انني ما عشت لن انسى لك ولوالدتك العزيزة هذا الجميل » . ثم اطرق وتشاغل بالترويح على بوجهه بيده . فاذا باميلي تمسك يده في ترفق وتلطف وتقول وعيناها تلمعان ببريق ساحر جذاب : « أترى يـدي كانت ثقيلة عليـك ؟ » . ثم ضغطت يده بخفة ورشاقة وهي تبتسم، فتمشت الرعدة في مفاصله وتسارعت دقات قلبه ، وعادت به ذاكرته الى اليوم الاول لتبادله الحب مع سلمى ، فوجم وخشي ان يكون قد نجا من شر ليقع في شر اعظم ، فلم يسعه الا جذب يده من يدها بلطف ، واطرق ساكتا والهواجس تتقاذفه .

فاشتد احمرار وجهها ، وبدت فيه آثار الخجل والكدر معا ، وتأخرت خطوة الى الوراء وساقاها لا تقويان على حملهـا لفرط تأثرهـا . فأثر في نفسه ضعفها وانف ان يسيء اليها وان لم يقصد ذلك بعد ان احسنت اليه وسهرت هي وامها في رعايته وخدمته ، وبالغتا في اكرامه والعطف عليه . فمد يده وامسك يدها وضغطها مترفقا وقال بصوت مختنق : « انني لن انسى يدك ما دمت حياً » .

فنظرت اليه في عتاب وقالت هامسة : « ولماذا رفضتها اذن ؟ » .
فقال : « انا ارفض يـدك ؟.. وهل مثل هذه اليد يقدر على رفضها احـد ؟ » .

فتوردت وجنتاها ، واغرورقت عيناها بالدموع وانكسرت اهدابها ثم رفعت عينها ورمقته بنظرة نفاذة مؤثرة وقالت : « ارجو الا تندم على انك طلبتها بعد ان رفضتها » قالت هذا وركزت نظراتها في عينيه منتهزة الفرصة السانحة لايقاعه في شباكها .

فقال متلعثما : « حاشا وكلا ، ولكنني اخشى الا اكون اهلا لبلوغ هذه الغاية » . ثم فطن الى انه اوشك ان يقع في الحب مرة اخرى ، وهو ما زال يعاني آثار الحب الاول . فأمسك عن الكلام متظاهرا بأنـه يشعر بصداع خفيف ، وفطنت هي بدورها الى قصده ، لكنها تجاهلت وسارعت الى احضار دواء مسكن اذابت قليلا منه في ملء نصف كوب من الماء ، وقدمته له في ادب ودلال يشوبه الحياء ، فشربه ثم شكرها بلسانه بعد ان شكرها بعينيه وبلمس يدها وهو يرد اليها الكوب بعد تناول الدواء .

وبعد قليل جاءت والدتها فحيته تحية الصباح ، وقالت : « انني احمد الله على ان استجاب دعواتي لك طول الليل ، فهذا انت قد اصبحت معافى بادي النشاط والمرح » .

ثم التفتت الى اميلي ابنتها وقالت لها : « أليس كذلك يا اميلي ؟ ».

فقالت : « صدقت يا والدتي وقد صرحت له بهذه الحقيقة منذ قليل، لكنه لم يصدقني الا بعد ان اظهرت له استعدادي لان اقسم له مؤكـدة ذلك » . ونظرت الى والدتها بطرف عينها .

ففهمت وردة ان ابنتها بدأت تطبيق التعليمات التي اصدرتها اليهـا لاجتذاب سليم ، غير انها تظاهرت بالسذاجة والبساطة وهمت بسليم فقبلته وقالت : « اننا نشكر الله على ان هيأ لنا هذه الفرصة الطيبة للنيابة عـن

نة العزيزة الكريمة السيدة والدتك » .

ثم ضحكت بصوت مرتفع وقالت : « اي فرحة عظيمة ستغمر قلبها تراك اليوم بعد عودتها من القاهرة . ولا شك في ان فرحتها ستكون مضاعفة حين تجدك في منزلنا هذا . لكن قل لي يا عزيزي سليم : هل جئت من القاهرة اجابة لطلبها في خطابها الاخير ، ام ان هذا الخطاب لم يصل اليك » .

فشعر بأنها تسأله هذا السؤال الاخير، لتلهيه عن صوغ عبارات الشكر بالاجابة عنه . واعجب كل الاعجاب بنبلها واريحيتها ، ولم يسعه الا ان ينزل على رغبتها الكريمة ، فقال : « لم اتلق خطابها هذا مع الاسف لاني كنت في حلوان وجئت الى هنا دون ان امر بالبريد لتسلم الخطابات الواردة الي . ويا حبذا لو كتبت الى ادارة البريد الآن كي ترسل الي خطاباتي الى هنا » .

فقالت : « حسنا تفعل » . ثم اشارت الى إميلي ، فغادرت الغرفة في خفة ورشاقة وهدوء ، وعادت بعد قليل ومعها دواة وقلم واوراق . فوضعتها على المنضدة ثم قربتها الى سليم وعادت الى وقفتها بالقرب منه والمروحة في يدها استعدادا للترويح له ، فنظر اليها وابتسم، ثم امسك القلم وكتب خطابا بذلك المعنى الى ادارة البريد في القاهرة ووضع الخطاب في الظرف ثم عاد فأخرجه ، وناوله لاميلي قائلا : « هل لك ان تسدي الي يدا اخرى بكتابة عنوان المنزل هنا ؟ » .

فقربت وجهها من وجهه واخذت تملي عليه العنوان في همس رقيق ود لو انه لم ينته .

وما اتم كتابة العنوان حتى سارعت اميلي الى تناول الخطاب من يد سليم ، ثم ارسلته مع احد الخدم ، ليضع عليه طابع البريد ثم يضعه في اقرب صندوق للخطابات البريدية . ووقفت تشرف على بقية الخدم وهم يعدون

طعام الافطار ، فلما انتهوا من ذلك واعدت المائدة انتقل اليها سليم وجلست أميلي امامه ووالدتها عن يمينه واخذوا في تناول الطعام وتبادل مختلف الاحاديث » .

* * *

عاد سليم واميلي ووالدتها الى الغرفة المخصصة لنومه ، لكي يستريح قليلا بعد الغداء . وفيما هم هناك جاء احد الخدم مهرولا يقول : « لقد حضرت السيدة والدة سيدي سليم » .

فخفق قلب سليم وارتعدت فرائصه واخذته الحيرة فلم يدر اي شيء يفعل . على ان حيرته لم تطل فسرعان ما دخلت والدته راكضة . وما كاد نظرها يقع عليه وهو يهم بالنهوض من الفراش لاستقبالها حتى اسرعت ورمت بنفسها عليه محتضنة اياه ، ثم ما زالت تعانقه وتقبله ودموعها تتساقط من عينيها ، حتى شعر ببرودة يدها وتصبب العرق منها وهو يقبلها فرفع وجهه الى وجهها وذراعاها حول عنقه فاذا به يجدها مسبلة العينين، ورأسا يترنح للسقوط ، فهم بها ومددها على السرير، وبادرت وردة واميلي فرشتا وجهها بالماء . فلما افاقت وانتبهت لنفسها ولمن حولها عادت الى معانقة سليم وتقبيله وهي تواصل البكاء والشهيق قائلة : « آه يا ولدي ! آه يا حبيبي !.. أهكذا تترك حلوان والقاهرة دون ان تخبر احدا ؟ ولقد بحثنا عنك هناك في كل مكان يمكن ان تكون فيه . وكاد قلبي يحترق جزعا وتلهفا عليك ، ولولا ان جاءني صباح اليوم خطاب اخيك فؤاد فاطمأن قلبي عليك ما قدرت لي الحياة حتى الآن .

فهم سليم بيديها فقبلهما كما قبل رأسها وقال : « كنت متضايقا من مرضي الى ابعد حد . وعلى اية حال انا اعتذر اليك واحمد الله اذ اراني وجهك الكريم . ولا يفوتني ان اخبرك بأن ما كنت اشعر بـه من المرض

والهم قد زال والحمد لله ، والفضل في ذلك يرجع اولا الى كرم اهل هذا المنزل ولطفهم وتواضعهم وتحملهم التعب في سبيل راحتي ومعالجتي » .

فهمت والدته بوردة واميلي فقبلتهما شاكرة ما ابديتاه من المودة والعطف والعناية بولدها وفلذة كبدها . وعادت اميلي فقبلت يد والدة سليم بخشوع . ثم جلس الجميع يتحدثون ويضحكون فرحا مستبشرين باجتماع الشمل . واميلي اشدهم فرحا لوثوقها من ان حيلتها قد انطلت على سليم .

* * *

كان سليم قد علم بوصول والدته قد هاجت اشجانه وتذكر عقوقه اياها ومخالفته نصيحتها من اجل سلمى التي تبين فيما بعد خيانتها وخداعها. وحدثته نفسه اكثر من مرة بأن يخاطب والدته في هذا الشأن ويستغفرها عما سبب لها من المتاعب والاكدار . على انه آثر ان يؤجل ذلك الى ان يخلو اليها . فلم تتح له فرصة لذلك الا عند فجر اليوم الثالث ، او بعده بقليل حين استيقظ من النوم بعد سهرة طويلة ، فاذا يجدها جالسة الى جواره وهي ترتب شعره وتنظم غطاءه ، فنهض وقبل يديها وجلس يجاذبها اطراف الحديث الى ان قال : « كم انا نادم يا اماه على ما فرط مني وعلى ما سببته لك من التعب والكدر بحماقتي وجهلي » .

فأدركت انه يعني اصراره على خطبة سلمى ، وقالت له : لا بأس عليك يا بني ، ان اول ما يهمني الآن هو ان اراك في خير صحة وعافية . على ان معارضتي لك لم تكن الا عن جهل مني ايضا ، فقد كنت اظن انك وقعت في حب تلك الفتاة مخدوعا بمكرها ودهائها ، وان اصرارك على خطبتها ليس الا استنكافا منك ان تخلف ما وعدتها . ولكن لما اخبرني حبيب بجلية الامر ، واكد لي انك لم تحبها وتصر على خطبتها الا بعد طول

روية واختبار ، لم يسعني الا السفر معه الى القاهرة لاطمئن على صحتك ، ولاخبرك بأني راضية بأي فتاة تختارها » .

فلما سمع سليم حديث والدته عن حبيب وسلمى تحقق خيانتهما لان معارضة والدته خطبة سلمى لم يكن لحبيب علم بها ، فلا بد من أن تكون سلمى هي التي اطلعته عليها وطلبت اليه ان يسافر الى الاسكندرية ويقابل والدته لاقناعها بالعدول عن معارضتها . غير انه لم يصرح لوالدتـه بذلك حتى لا يصغر في عينيها واكتفى بأن قال لها : « ان علاقتي بتلك الفتـاة اصبحت في خبر كان . وثقي بأني لن اعود اليها ابدا ، وانني بـاق بجانبك هنا في الاسكندرية ، ولن اخطو اية خطوة في سبيل الخطبة او الزواج الا بمشورتك » .

فعجبت والدته من امر هذا الانقلاب الغريب ، ولاح لها أنه يجاريها بما قاله ابتغاء مرضاتها ، فقالت له : « على اية حال ، كن على يقين من اني لم اقل لك الا الحق ، وانني موافقتك على كل ما تقرره في شأن زواجك ، فاذا كنت تريد خطبة سلمى فأنا على استعداد لان اخطبها لك بنفسي واكون لها خادمة بقية حياتي اكراما لك » .

فقال : « حاش لله يا اماه ، انما انا واية فتاة تختارينها زوجة لي رهن اشارتك وطوع بنانك . واكرر لك ان علاقتي بسلمى قد انقطعـت تماما ، ووطدت العزم على ذلك » .

فقالت : « على كل حال ، انت الآن مـا زلت في طور النقاهة مـن مرضك ، ومتى تم شفاؤك باذن الله ، نعود الى بحث هذه المسألة ، ولا يكون الا ما ترضاه » .

وكانت الشمس قد اشرقت واستيقظت وردة واميلي ، فجاءتا للسؤال عن صحة سليم ، وجلستا بجانب والدته تهنئانها بتماثله للشفاء ، وتتسابقان الى ارضائهما بمختلف الوسائل .

* * *

بقيت اميلي حتى موعد الغداء وهي تترقب ان تسنح لها فرصة تخلو فيها الى سليم لتستأنف معه حديث الامس وتتم حيلتها لاجتذابه اليهـا وحمله على المبادرة بخطبتها . ولكنها لم تتمكن من ذلك لان والدته لبثت مرابطة بجانب سريره لم تفارقه لحظة واحدة.

وبعد الغداء ، اوى الجميع الى الفراش للقيلولة ، وحاولـت اميلي وامها ابعاد والدة سليم من غرفته الى غرفة نومهما ، على ان تتسلل اميلي خلال ذلك الى غرفته ، ولكنها لم تغادر غرفته الا بعـد ان رأتـه يتثاءب والنوب يداعب جفنيه . وما كادت تخرج حتى نهض من سريره واغلق باب الغرفة من الداخل ثم عاد الى السرير واضطجع فيه ، ثم اطلق لنفسه عنان التفكير في امره ، وقد شعر بأن اعجابه باميلي ليس اعجابا عاديا ، ولكنه ادرب ما يكون الى الحب أو الشروع فيه .

وفيما هو كذلك سمع طرقا خفيفا على باب الغرفة ، فنهض وفتـح الباب فاذا باميلي هي الطارقة وبادرته قائلة في دلال : « عفوا يا عزيزي ، اذا كان في وجودي هنا الآن ما يثقل عليك » .

فتلجلج ولم يدر كيف يجيب ، ولاحظت هي من نظراته ثم اطراقـه وسكوته ما بشرها بنجاح الخطوات الاولى من تدبيرهـا المشترك مـع والدتها . فأرادت انتهاز هذه الفرصة لاتمام الخطوات الباقية ، ودخلـت الغرفة متظاهرة بتبديل اغطية السرير بنفسها دلالة على شدة عنايتها براحته. لكنها ما كادت تنتهي من ذلك وتهم بالجلوس على اقرب مقعد من السرير ، حتى جاء احد الخدم ، وقدم مجموعة من الخطابات ذاكرا انها جاءت في بريد الصباح ، وفاته ان يأتي بها اليه حينذاك .

١٣

فصل الخطاب

اخذ سليم يقلب ظروف الخطابات الواردة اليه ، فوقعت عينه على ظرف من بينها عرف لاول وهلة انه بخط سلمى ، فبغت وخفق قلبه . لكنه تجلد حتى لا تلاحظ اميلي تأثره واضطرابه ، ثم تظاهر بحاجته الى النوم ، ووضع الخطابات كلها دون ان يفضها على المنضدة التي بجانب السرير ، فانطلت حيلته على أميلي . ونهضت للانصراف وانتظار فرصة اصلح لاستئناف حديثها معه على حدة .

ورأى هو ان يطيب خاطرها بكلمة تنم عن مبادلتها مثل شعورها نحوه فقال لها : « يلوح لي اني سأكون في المساء اشد حاجة الى يدك اللطيفة يا عزيزتي » .

فخفق قلبها ونظرت اليه لترى ماذا يقصد بهذه العبارة ، فاذا به يبتسم وينظر اليها بطرف عينه كأنه يعجب من انها لم تفهم مراده ، ثم قال لها : « سأحاول بعد النوم قليلا ان اقرأ هذه الخطابات التي جاءتني من القاهرة ، ولا شك في ان الرد عليها بخط يدك سيكون اسرع وابدع ، ولا سيما ان يدي ما زالت ضعيفة من اثر المرض . فما قولك ؟ » .

فابتسمت وقالت : « اني رهن اشارتك ، ويسعدني جدا ان اتولى عنك هذه المهمة » . ثم استأذنت وانصرفت الى حيث انضمت الى والدتها ووالدته في الغرفة المجاورة وجلسن يقطعن الوقت بالحديث متهامسات ، مبالغة في توفير الهدوء والراحة لسليم .

وما خلا الى نفسه في غرفته حتى سارع الى مجموعة الخطابات الواردة اليه ، وفض الخطاب الذي ظرفه بخط سلمى ، فاذا هو بخطها من

الداخل ايضا ، وقد كتبت فيه تقول :

« ابعين مفتقـر اليـه نظرتـني   فأهنتني وقـذفتني مـن حـالق ؟
« لست الملوم ، انا الملوم ، لانني   انزلـت آمـالي بغـير الخـالق !

« قرأت خطابك الاخير اكثر من عشريـن مرة ، لعلي استطيـع ان اهتدي الى تعليل معقول لما تضمنه من تهم خطيرة وادلة ومستندات ملفقة. ولكني لم اجد سببا يمكن الركون اليه الا انك رغم ذكائـك تورطت في تصديق بعض الحساد وذوي الاغراض .

« وقد حاولت اكثر من مرة ان ارجع تلك الاتهامات الباطلـة الى رغبتك في التخلص مني لحاجة اخرى في نفسك. ولكني تذكرت اني صرحت لك في خطابي الاخير بأني وان كنت لم احب ولن احب سواك ، لا يسعني الا ان اضحي بسعادتي كلها ما دامت تتعارض مع ما يجب عليك لوالدتـك الحنون من طاعة وبر واحسان ، فأحللتك من عهودك لتكون حرا تخطب وتتزوج ممن ترضى عنها والدتك . فهـل جزاء من تقدم على مثل تلـك التضحية ان تتهمها بالخيانة والغدر والنفاق ؟

« وليت شعري كيف رضيت لنفسك وانت رجل صناعتك المحامـاة وتمييز الحق من الباطل ، ان تعدل عما كنت تعتقده في من الطهر والاخلاص، ثم ترميني بشر ما ترمي به فتاة ، لا لشيء الا ان رجلا لا تعرفه زعم لك اني اوقعته في حبي ثم اكتشف اني عالقة القلب بصديق لك كنت تنزله منزلـة الاخ الشقيق ؟

« واخيرا ، ما هذه الورقة التي ذكرت انها وقعت في يدك اتفاقـا ، فكانت صك خيانتي ودليل مكري وخداعي وتضليلي ؟ انني لا اريـد ان اصدق ابدا انك عنيت ما قلت عن هذه الورقة ولا عن ذلك الصديق . فأنا لم اكتب هذه الورقة ولا علم لي بشيء مما فيها ، بل لم اكتب طول حياتي

اي خطاب لرجل سواك . وقد عرضت جميع اصدقائك الذين اعرفهم فلم اجد بينهم احدا يمكن ان يصدق فيه ذلك الاتهام !

« واخيرا ، قدر لي ان اقف على حقيقة كنت اجهلها وهي انك اعتزمت خطبة فتاة من اهل الاسكندرية ، وصدقني يا سليم انني لم احقد على هذه الفتاة قط ، بل على عكس ذلك دعوت الله ان يبارك لها فيك ويبارك لك فيها لتعيشا سعيدين بمنجاة من متاعب الوشاة والحساد . وليس هذا لاني لم اتيقن بعد من انك رميتني بتلك التهم الكاذبة وانت على يقين من كذبها ، ولكن لاني رغم ذلك كله ما زلت ارى قلبي اطهر وانبل من ان ينبذ حب اول من طرق بابه وتربع فيه .

« ومهما يكن من امر ، فلا تحسب اني اكتب اليك هذا الخطاب طامعة في ان تعود الى ما كنا فيه ، او لاحملك على الندم والاسف لمقابلة تضحيتي واخلاصي بالجحود والنكران وتلفيق التهم والاباطيل . ذلك لاني وطدت العزم على اعتزال العالم ، وقضاء ما بقي لي من العمر في دير او صومعة اتعبد فيها لخالقي وهو الخبير بما تكن الجوانح والصدور ، واليه ترجع الامور .. سلمى » .

* * *

لم يأت سليم على آخر خطاب سلمى حتى هاجت عواطفه وتناثر الدمع من عينيه ، واخذ يعيد قراءته في تدبر وامعان ، ثم يتذكر ما لمست في سلمى من صدق المحبة والوداد وكمال الخلق والعقل ، ثم يقارن ذلك بالاسباب التي بنى عليها اتهامها واتهام حبيب ، فلاح له انه ظلمهما ، وان داود القبيح الوجه لا يمكن ان تحبه فتاة مثل سلمى ، كما ان دعواه ضدها وضد حبيب ، باعترافه هو نفسه ، ليس في يده عليها اي دليل !

واخذ يتذكر الورقة التي وجدها في رواية حبيب ، فلاح له ايضا ان

خطها مختلف عن خط سلمى قليلا . فاستبدت به الوساوس وبقي وقتا غير قصير وهو شارد الذهن حائره . ثم افاق من ذهوله وهم بقراءة خطاب سلمى مرة اخرى ، لكنه اشفق على رأسه ان يتصدع من تضارب العوامل المختلفة فيه . فطواه ووضعه في جيبه ، ثم تناول من بين الخطابات خطابا آخر كتب بخط يشبه الخط الذي كتبت به خطابات والدته اليه ، فتذكر ان السيدة وردة اخبرته بأن والدته كانت قد ارسلت اليه خطابا طلبت اليه فيه الحضور من القاهرة . وما كاد يفضه ويقرأ اول سطر فيه حتى اخذته الدهشة ، اذ وجد انه موجه الى شخص آخر سواه . فأعاد النظر الى العنوان المكتوب على الظرف فاذا هو عنوانه كاملا غير منقوص .

ثم لاحظ ان الشخص الموجه اليه الخطاب من الداخل اسمه داود ، فتذكر ذلك الرجل القبيح الوجه الذي علم منه بخيانة سلمى وحبيب . ومضى يقرأ الخطاب لعل فيه ما يكشف سر ارساله اليه فاذا فيه :

« عزيزي الاجل الماجد الخواجه داود

« بعد السؤال عن صحتك الغالية ، نخبرك بأننا تلقينا خطابك الذي ارسلته عقب وصولك الى القاهرة ، وسررنا كثيرا لنجاح حيلتك اللطيفة مع الشخص المعروف ، حتى انه صدق الحكاية التي اخترعتها عن خيانة الفتاة ، وبدت في وجهه امارات الغيظ والقلق .

« كما اننا تلقينا خطابك التالي الذي بشرتنا فيه بنجاح سعيدة في سرقة الخطاب الذي ارسلناه اليه باسم والدته محذرة اياه ان يستمر في علاقته بالفتاة وتتهمها واسرتها بالمكر والخداع . ثم نجاح سعيدة في اطلاع الفتاة على ذلك الخطاب ، الامر الذي أثارها وحملها على مقاطعته واحلاله مما بينهما من العهود .

« ولكن مضت مدة غير قصيرة دون ان تتلقى ام صاحبنا اي رد على خطاباتها اليه ، وانت تعلم ان الانتظار يكلفنا مشاق ونفقات جسيمة في

التقرب الى والدته وغير ذلك . ولولا ان اميلي ميالة اليه ما تكبدنا كل ذلك العناء . وعلى كل حال اخبرك بأنني أغريت والدته بالكتابة اليه لكي يحضر الى هنا ، وقد كتبت بنفسي مع خطابي هذا خطابا اليه على لسانها . فعليك ان تستمر في مراقبته لترى ما يصنع بعد ان يتلقى خطاب والدته المذكور . ولك ازكى تحياتي واشواقي وحبي .... وردة »

* * *

انقشعت الغشاوة بعد ذلك عن عيني سليم ، ووقف على سر المؤامرة التي دبرتها وردة مع داود وسعيدة للتفريق بينه وبين سلمى . ولم يتمالك عواطفه بعد ذلك فانهمرت دموعه حزنا وندما على ما جمله يفرط في حق سلمى ويتهمها ظلما وعدوانا . ثم انقطع فجأة عن البكاء واخذ في الضحك بصوت عال فرحا بظهور براءة سلمى وحبيب ، ونجاته من الفخ الذي نصبته لايقاعه وردة وصاحبها اللعين داود .

وفيما هو كذلك ، دخلت عليه والدته ، فما كاد يراها حتى قال لها : « اغلقي باب الغرفة من الداخل وتعالي » .

فعجبت لذلك الطلب ، ولكنها اغلقت الباب وسارعت اليه متسائلة ، فأشار اليها ان تجلس بجانبه على السرير ، ثم اخذ يشرح لها هامسا جميع الاسرار التي وقف عليها ، ومؤامرة وردة من أولها الى آخرها ، فكادت لا تصدقه لغرابة الامر ولطيبة قلبها لولا ان قرأ عليها كتاب وردة التي ارسلته بخطها الى داود ثم اخطأت ووضعته في الظرف الذي كتبت عليه عنوانه هو لتضع فيه الخطاب الآخر الذي كتبته باسمها اليه .

واغرورقت عينا والدة سليم بالدموع وقالت : « ويل لكل خائن غدار ، وويل لي انا ايضا لاني كنت سببا لشقاء سلمى المسكينة ، ولكن

عذري اني كنت مخدوعة ولا اعلم انها ملاك طاهر وان وردة وابنتها مـــن الشياطين الملاعين ! » .

فقال سليم : « ليس الذنب ذنبك يا اماه ، ولكنه ذنب تلك الفاجـــرة اللئيمة التي دبرت دسيستها القذرة، واشترك معها في تنفيذها ذلك الشيطان داود ، وخادمتها الخبيثة العجوز ، للايقـــاع بسلمى الطاهرة البريئـــة . والتفريق بيني وبينها . وان نفسي لتحدثني بأن انتقم لها منهم شر انتقام ».

قالت : « يجب ان نخرج من هنا اولا ، دون ضجة ، ثم ننظر في الامر بعـــد ذلك » .

وسمعا وقع اقدام واصواتا خارج الغرفة ، فقـــال سليم لوالدتـــه : « سأتظاهر بورود كتاب الي من القاهرة يدعوني الى السفر اليها حالا لعمل عاجـــل ، ثم اذهب الى منزلنـــا حيث تلحقين بي بعـــد ان اكتب الى حبيب صديقي الوفي المظلوم ، ليذهب الى سلمى ، ويبلغها اننا سنزورها بعد يوم او يومين لتصفية الجو واعادة المياه الى مجاريها » .

فوافقته والدته على ذلك ، ونهضت لتفتح الباب ، بينما نهض هـــو واخذ في ارتداء بذلته استعدادا للانصراف .

١٤

فرحة لم تتم

كانت سلمى قد كتبت خطابها الاخير الى سليم وبعثت به اليه ، بعد ان اقنعتها سعيدة العجوز الماكرة بسوء نيـــة سليم ، وبأنه ذهـــب الى

الاسكندرية عقب ارساله خطابه الاخير اليها بوساطتها ، لكي يعقد قرانه بفتاة هنــاك .

وكان داود هو الذي اخبر سعيدة بذهاب سليم الى الاسكندرية ، اذ علم بذلك من خطاب تلقاه من سيدتها وردة .

وقد شعرت سلمى منذ تلك اللحظة بأنها فقدت كل امل في علاقتهـا بسليم ، لانها كانت شديد الثقة باخلاص سعيدة لها وتفانيها في خدمتها فازداد حزنا وضعفها ، وكثيرا ما كانت نفسها تحدثها بالانتقام من سليم على تغريره بها ثم رميه اياها بالخيانة والغدر والخداع في حين انه اولى بــأن تلصق به هذه الصفات .

وحدث ان تفقدت خطابه الاخير ذات يوم لتعيد قراءته وتتأمل تلــك الورقة التي زعم انها كتبتها بخطها الى شخص آخر تعترف له فيها بأنهـا تحبه ، ولكنها لم تجد تلك الورقة رغم طول بحثها عنها . وذلك لان ادما كانت قد عثرت بها ملقاة بجانب سرير سلمى وهي تعودها ، وعرفت انهـا الورقة التي كتبتها الى حبيب ، فاحتفظت بها معتقدة ان حبيبا هو الذي جاء بها الى سلمى ، لكي يسخرا منها ويضحكا من سذاجتها وتصديقها ان حبيبا يحبها .

وشغلت سلمى بمرضها وحزنها عن مواصلة البحث عن تلك الورقة . اما ادما فانها لم تطق صبرا على البقاء في منزل سلمى بعدما تبــين لها من تآمرها عليها مع حبيب ، فسارعت الى منزلها حيث خلــت الى نفســها في غرفتها واخذت تعض على نواجذها غيظا وندما . ثم لحق بها ابوها وامها الى المنزل ، فلما شعرت بقدومهما اخفت الورقة ، ثم غسلت وجهها حتى لا تبدو آثار الدموع في عينيها ، وتظاهرت بانحراف صحتها ولزمت الفراش ، وقد نال اليأس منها كل منال .

وعلى رغم انها كانت تود لقاء حبيب لتوبخه او تعاتبه على سخريته

منها ، كان قلبها يخفق بشدة ولا تتمالك نفسها من البكاء كلما صور لهـا اليأس والحزن وسوء ظنها به انـه لن يستنكف ان يخاطبها بما يشينهـا ويحقرها ويحط من كرامتها . فبقيت كذلك حتى ظهر اليوم التالي، دون ان تتناول اي طعام ، او يراود الكرى جفنيها ، ولم تكن تنقطع عن البكاء الا عند وجود والديها او احدهما في الغرفة . وهما لا يعلمان من امرهـا الا انها متوعكة الصحة منحرفة المزاج .

وفيما هي مستلقية على سريرها ، ووالدتها مشغولة ببعض اعمـال المنزل ، وابوها خارج المنزل ، تذكرت تلك الورقة التي كانت سبب بلائهـا وشقائها ، فأخرجتها من مخبئها ، واخذت تتأملها وتعيد تلاوتها ، وصـور لقائها بحبيب في رحلة الاهرام فتابع على لوحة مخيلتها ، ثم تعقبا صورتـه مع سلمى وهما يتأملان خطابها اليه ويضحكان ساخرين . وهنا لم تتمالك نفسها فانفجرت باكية وعلا شهيقها حتى خشيت ان تسمعه والدتها ، لكنها مع ذلك استمرت فيه لعله يخفف بعض ما تعانيه .

* * *

سمعت ادما بعد قليل طرقا على الباب الخارجي للمنزل ، فعادت الى ذهنها صورة حبيب حين كان يأتي للزيارة ، فأخذتها الرجفة واشتد خفقان قلبها . ثم سمعت الباب يفتح وصوت والدتها ينطلق بعبـارات التحيـة والترحيب . وما لبثت قليلا حتى دخلت عليها امها ومعهـا والدة حبيـب وشقيقته ، فلم تتمالك عواطفها عند رؤيتهما واخذت في البكاء والنحيب . فهمت بها شفيقة وراحت تحتضنها وتقبلها قائلة : « ما هذا يا عزيزتي ، اتبكين هكذا كالاطفال ، لشعورك بصداع او برد خفيف . لا .. لا .. ان عزيزتي ادما اشجع من ذلك كثيرا ، فهيا دعي عنك هذه الاوهام ، واجلسي

لنتمتع بحديثك اللطيف كالمعتاد » .

وقبلتها والدة حبيب بدورها واخذت تواسيها وتشجعها بمثل تلك العبارات . فلم يسعها الا ان تمسح دموعها وتجلس في فراشها متجلدة لتجاذبهما الحديث . ثم قالت لشفيقة شقيقة حبيب وهي تتكلف الابتسام : « ترى ماذا جرى حتى خطرنا ببالك وجئت لزيارتنا بعد ذاك الغياب الطويل ؟ » .

فردت عليها شفيقة وعلى فمها أبتسامة تنم عن طيبة قلبها وبساطتها وقالت : « اننا لا غنى لنا عن زيارتكم ، ولكننا منذ افترقنا بعد رحلة الاهرام اللطيفة كنا في شغل شاغل خطير ، وقد انتهى بخير والحمد لله » .

فلما سمعت ادما ذكر رحلة الاهرام هاجت اشجانها وكادت تعاود البكاء ، لكنها جاهدت لتغالب دموعها وتكبت عواطفها وقالت : « وماذا كان ذلك الشغل الشاغل ، خيراً ان شاء الله ؟ » .

قالت : « ان الخواجه سليم اصابته الحمى على اثر تلك الرحلة ، ونظرا الى انه يقيم وحده بالقاهرة ، لان اسرته في الاسكندرية كما تعلمين، نقله اخي حبيب الى منزلنا بحلوان لنقوم بتمريضه وخدمته حتى يشفى . ثم حدث في اليوم التالي ان سافر حبيب الى الاسكندرية دون ان يخبره بذلك لكي يجيء من هناك بوالدته لتراه . فلما كان عصر ذلك اليوم ، غادر سليم المنزل على ان يتمشى قليلا في حديقة حلوان العامة . لكنه لم يعد الى المنزل ولم يخبرنا بالمكان الذي قصد اليه . فلما عاد حبيب ووالدة سليم في صباح اليوم التالي ، سقط في ايدينا جميعا ، وحسبت والدة سليم انه مات او انتحر يأسا من الشفاء ، فانقلب جو المنزل الى مثل جو المآتم . وزاد الطين بلة ان حبيبا مضى الى القاهرة مرتين للبحث عنه ولكنه لم يقف على اي اثر له . وهكذا امضى حبيب يومين متتاليين وهو يعاني متاعب السفر والبحث هنا وهناك ، وضاعت كل محاولتنا لتهدئة روع والدة سليم .

فلبثنا في ذلك الشغل الشاغل الخطير حتى صباح امس اذ تلقى حبيب من سليم خطابا من الاسكندرية اخبره فيه بسفره اليها اتفاقا ، ويعلمه من شقيقه هناك بأنه كان هناك في اليوم السابق وعاد ومعه والدته . ثم طلب اليه ان يعيدها الى الاسكندرية ففعل . وما كدنا نشعر ببعض الراحة من كل ذلك العناء حتى جئنا لزيارتكم ، فهل هناك بعد ذلك اي تقصير من جانبنا لا سمح الله ؟ » .

فسرى عن ادما قليلا لوقوفها على سر تردد حبيب الى منزل سلمى وسفره الى الاسكندرية وانصرافه عنها . لكنها بقيت في حيرة من امر وجود خطابها الخاص اليه في غرفة سلمى . واحبت ان تعلم لماذا لم يأت مع والدته وشقيقته ما دام قد اطمأن على صحة صديقه سليم واعاد والدته الى الاسكندرية ، لكن الحياء امسكها عن السؤال عنه . فاكتفت بأن تنهدت وقالت : « لقد اسفت جدا لمرض الخواجه سليم ، فالحق انه من خيرة الشبان المهذبين الاوفياء ، لكن هل مرضه كان لعلمه بمرض سلمى ؟ ام انها هي التي مرضت لعلمها بمرضه ؟ » .

فلم تفطن شفيقة لنكتة ادما ، وقالت في دهشة : « كيف يكون هذا ؟ أيمرض احد لعلمه بمرض آخر ؟ ام انت تقصدين انتقال العدوى ؟ » .

فابتسمت ادما وقالت : « الا تعلمين انهما خطيبان ، وبينهما محبة متبادلة ؟ ».

فقالت : « اعلم هذا ، ولكن مرضهما لم يكن بسبب العدوى لانهما لم يتقابلا منذ رحلة الاهرام » . ثم غيرت مجرى الحديث فجأة وقالت لادما: « ما بالك لا تسألين عن حبيب وعدم مجيئه معنا ؟ » .

فبغتت ادما ، وخفق قلبها واحمر وجهها ، ثم تجلدت اذ فطنت الى ان شفيقة خالية الذهن لا تعلم شيئا عن علاقتها بشقيقها ، وردت عليها بقولها : « لم اسأل عنه لانه لا بد ان يكون مشغولا بما لديه من اعمال » .

وكانت والدتاهما تسمعان تحاورهما ولا تفقهان اكثره لانهماكهما في حديث آخر . فاقتربت شفيقة من سلمى وهمست في اذنها قائلة وهي تبتسم : « انه اليوم خال من العمل وقد تركناه في المنزل وحده » .

فلم تفهم ادما من هذه العبارة الا اصرار حبيب على هجرها والاستهانة بها . وعاودها حنقها عليه فقالت وهي تجاهد لاخفاء شعورها : « وهل من الضروري ان يتوجه معكما حيث تتوجهان ؟ » .

فقالت شفيقة : « كلا . ولكنه لم يتخلف عن المجيء معنا الا لامر مهم »

فأجفلت ادما . ولم تعد تستطيع كتمان ما بها ، فأشاحت بوجهها وقالت : « هو حر على كل حال . وليس هناك ما يقتضي الاعتذار من تخلفه » .

فضحكت شفيقة وقالت : « الواقع انه لم يتخلف الا بسبب ما جئنا لزيارتكم اليوم خصيصا لاجله » . ثم عادت الى الضحك .

فازدادت ادما حيرة وارتباكا ، ثم قالت متضجرة : « مالك تتكلمين بالالغاز يا عزيزتي . وما الذي يضحكك هكذا على غير عادتك ؟ »

فأغرقت شفيقة في الضحك ، ثم التفتت الى والدتها ووالدة ادما . فاذا بهما قد غادرتا الغرفة . فقالت : « ألم أقل لك ؟ انهما الآن ولا شك تتكلمان في الشأن المهم الذي جئنا للكلام فيه » .

فقالت ادما وقد نفذ صبرها : « أهناك سر لا يجوز لي ان اطلع عليه ، ام ماذا هناك ؟ » . واغرورقت عيناها بالدموع .

فقالت شفيقة : « ليس في المسألة الا ما يسرك ويسرنا جميعا ، ولا استطيع ان اصرح لك الآن بأكثر من هذا ، على انك بذكائك المعهود تستطيعين ان تدركي كل ما هناك » .

قالت : « صدقيني يا عزيزتي اني لم افهم اي شيء » .

فبدت الدهشة في وجه شفيقة ، وتلفتت نحو باب الغرفة كأنها تحاذر

ان يسمع احد كلامها ، ثم همست قائلة : « لقد جاءت والدتي لتخطبك لحبيب . فهل فهمت ؟ » .

فلما سمعت ادما ذلك ، غلب عليها الحياء وخفق قلبها سرورا ، لكنها لم تصدق النبأ ، او رأت التظاهر بأنها لا تصدقه ، فقالت : « دعينا بالله من مثل هذا المزاح ، فليس هذا وقته ، ولا هو مما يليق بنا » .

فقالت شفيقة جادة : « وهل عهدتني امزح بمثل ذلك ؟ .. اني ما قلت لك الا الحقيقة . ولولا ما تعلمين من محبتي لك ما صرحت لك بشيء قبل ان تتم المحادثة في هذا الشأن بين والدتي ووالدتك » .

فتحققت ادما ان الامر جد لا هزل ، وكادت الدنيا لا تسعها لفرط سرورها . لكنها آثرت التجاهل وقالت : « اسمحي لي ان اصرح لك بأني غير مستعدة لتصديق ذلك . وعلى كل حال يحسن ان ندع هذا الحديث الآن » . ثم مدت يدها واخذت تفحص نسيج الثوب الذي ترتديه شفيقة وقالت : « انه نسيج بديع ولا شك من اين اشتريته ؟ » .

فهمت بها شفيقة وقبلتها ثم قالت وهي تنظر في عينيها : « انك لا تتصورين كم انا سعيدة بخطبتك لحبيب . فأنا احب كليكما كل الحب . وهذا ما كنت اتمناه مخلصة لكل منكما منذ عهد بعيد » .

فلم تتمالك ادما نفسها من البكاء فرحا بهذه البشرى المفاجئة ، وهمت بشفيقة فقبلتها بدورها وهي تقول : « ان اخلاصك مما لا شك فيه » .

وبعد قليل عادت والدتاهما الى الغرفة ووجهاهما يتألقان بشرا وسعادة ، وجلسن يتحدثن في مختلف الشؤون العادية ، ثم نهضت والدة حبيب وشقيقته فقبلتا ادما ، وودعتاها وامها وانصرفتا مشيعتين بعبارات المودة والاحترام .

* * *

كان حبيب بعد ان ارتاح باله واطمأن على صديقه سليم ، قد عاد الى الحديث عن ادما مع والدته ، ثم اتفقا على ان تمضي هي وشقيقته لمحادثة والدتها في امر خطبتها له ، فاذا وجدتا منها قبولا ، ذهب هو لمقابلة ابيهـا وخطبها منه واعلنا الخطبة رسميا .

فلما عادت والدته وشقيقته من مهمتهما ، وجدتاه في انتظارهما بالمنزل نافذ الصبر وعلى وجهه آثار القلق والانقباض . فبشرته والدته بأن والدة ادما رحبت بخطبتها له مؤكدة انها سعيدة بذلك لما عهدته فيه من الادب والكمال والنشاط في عمله . كما اكدت ان الخواجه سعيد والد ادما لن يكون اقل منها ترحيبا وسرورا بهذه الخطبة .

فأشرق وجه حبيب ابتهاجا ، ولكنه قلق لما سمعه من ان ادما منحرفة الصحة وكانت معتكفة في فراشها حين زارتها والدته وشقيقته ، ولم يهدأ باله الا بعد ان اكدتا له انها بخير ولا تلبث قليلا حتى تسترد عافيتها كاملة. ثم استشار والدته في ان يمر بمنزل ادما في اليوم التالي بعد خروجه مـن الديوان لعيادتها ، فقالت له : « ان العادة جرت بأن يمسك الشاب عـن زيارة الفتاة التي شرع في خطبتها حتى يتم عقد الخطبة رسميا » . فتكدر لذلك رغم ان والدته اكدت له ان حرمانه من رؤية ادما لن يستمر اكثر من ايام معدودة ريثما يتم شفاؤها ثم مقابلته لابيها والاتفاق معه على خطبتها .

وفي اليوم التالي ذهب الى مقر عمله في القاهرة كعادته ، وفيما هـو يفكر في ادما ومرضها وعدم استطاعته زيارتها الا بعد ايام ، جاءه خطاب من سليم في الاسكندرية يقول فيه :

« اخي الحبيب وصديقي الحميم حبيب

« عندي لك حديث طويل ارجئه الى ان نجتمع قريبا بمشيئة الله ، وانما كتبت اليك هذا الخطاب لكي تبادر بمقابلة سلمى وتبلغها فيما بينك وبينها اني شفيت من مرضي ، وكل ما اتمناه ان تكون هي في خير وعافية،

وان تصفح عن ذنوبي الكثيرة لديها صفح الكرام .

« هذا واني لكبير الامل في ان تبذل اقصى جهدك في اقناعها بزوال ما اعترض سبيل خطبتنا من عقبات ، وان تواصل تعزيتها والترفيه عنها حتى اعود الى القاهرة والتقي واياكما بعد ايام . وحينئذ اسمعكما معا ذلك الحديث الطويل الذي اشرت اليه في اول هذا الخطاب . وهو حديث طريف ينطوي على قصة ليس هناك ما هو اعجب منها ، حتى انها لتفوق كل ما تخيله كتاب الروايات .

« ولكم جميعا ازكى تحياتي واشواقي . ودمت لصديقك

« المخلص ..... سليم »

فلما اتم تلاوة خطاب سليم عجب لما تضمنه من الاشارة الى ذلك الحديث الغريب ، واخذ يفكر فيما عساه ان يكون ، فرجح انه يتعلق بما كان من معارضة والدة سليم في خطبته لسلمى . وسر لنجاح مساعيه لديها في هذا السبيل ، كما سر لقرب عودة صديقه سليم .

وما عاد الى منزله في حلوان بعد انتهائه من عمله حتى خلا الى والدته واخبرها بالمهمة التي كلفه سليم ان يقوم بها وقال لها : « انني اخشى الا تتاح لي فرصة اخلو فيها الى سلمى لابلغها رسالة سليم : ولهذا ارجو ان تعاونيني على انجاز هذه المهمة فما قولك ؟» .

قالت : « هذا امر سهل ، وغدا امضي انا وشقيقتك معك الى القاهرة لزيارة اسرة سلمى ، ثم نبذل جهدنا انا وشقيقتك في ان نشغل والديها بالحديث لنتيح لك فرصة تبليغها رسالة سليم دون ان يشعر احد » .

فاستحسن رأي والدته وشكرها على عنايتها بحل تلك المشكلة .

* * *

كان اليوم التالي يوم جمعه ولا عمل لحبيب بالديوان ، فاصطحب والدته وشفيقة الى المحطة في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم . وما وصل بهم القطار الى القاهرة حتى توجهوا من فورهم الى منزل سلمى . ففتحت لهم والدتها الباب ورحبت بهم وادخلتهم غرفة الجلوس . فسألتها والدة حبيب عن صحة سلمى فقالت : «انها ما زالت ملازمة فراشها وصحتها تزداد سوءا رغم تناولها الدواء بانتظام ، واملنا في الله كبير ، وهو القادر على ان يشفيهـا » .

وبعد قليل ، وقفت شفيقة وقالت لها : « هل استطيـع الدخول على صديقتي سلمى في غرفتها الآن » . قالت : « نعم » .

وقبل أن تغادر شفيقة غرفة الاستقبال . استوقفها حبيب . ثم التفت الى والدة سلمى وقال : « هل استطيع ان اصحب شفيقة لرؤيـة سلمى والاطمئنان عليها » .

فقالت : « ولم لا يا بني ؟ انها ستسر برؤيتكما ولا شك » .

فنهض ومضى مع شقيقته ودخلا غرفـة سلمى ، فاذا هي ممددة في سريرها وقد هزل جسمها وامتقع لونها وغارت عيناها . وما كادت تراهما حتى انفجرت باكية لفرط تأثرها وتذكرها ما كان من امر سليم معها . فهمت بها شفيقة وقبلتها واخذت في تسليتها والترفيه عنها ومحاولة بث الامل في الشفاء التام العاجل في نفسها ، فازدادت سلمى بكاء وقالت : « ان ضعفي يشتد يوما بعد يوم ، واحسب اني لن اغادر هذا الفراش الا بعد ان اغادر الدنيا كلهـا » .

فلم تتمالك شفيقة من البكاء ، وكاد حبيب يبكي معهما لولا ان تذكر المهمة التي جاء لاجلها ، وان في ابلاغ سلمى رسالة سليم ما قد يخفف من ضعفها وحزنها ، فتجلد ولبث ينتظر ان تسنح له فرصة لاداء تلك المهمة . ثم سمعت شفيقة والدتها تناديها فنهضت ومضـت اليها وهي في غرفـة

الاستقبال مع والدة سلمى لترى ما تريد ، فقالت لها والدتها : ان خالتك ـ اي والدة سلمى ـ متعبة ولا شك لكثرة ما لديها من الاعمال المنزلية، ولكنها اصرت على ان نشرب القهوة عندها ، فاشترطت عليها ان تصنعي القهوة انت . فهيا يا بنيتي الى المطبخ واصنعي لنا القهوة المطلوبة » . فأشارت شفيقة برأسها موافقة وانصرفت للقيام بهذه المهمة .

وفيما هي في المطبخ لاح لها ان تتسلل الى البيت المجاور الملاصق لبيت ادما لتناديها وتأتي بها لتفاجئها بمقابلة حبيب ، وسرعان ما نفذت هذه الفكرة .

* * *

عادت شفيقة الى منزل سلمى ومعها ادما ، ثم دخلت بها فورا غرفة سلمى وهي تضحك مقدما مما تصورته من موقف شقيقها وخطيبته خلال لقائهما المفاجىء الذي دبرته . وكان حبيب قد اخرج خطاب سليم اليه وتلاه على سلمى فلم تتمالك عواطفها وانفجرت باكية ، وتأثر هو ببكائها فبكى بدوره واخذ يهمس في اذنها بعبارات التعزية والتشجيع . فما وقعت عينا ادما وهما في هذه الحال حتى بغتت ، وخيل لها ان حبيبا ما زال عالقا بسلمى كما رجحت ذلك من قبل ، وان سعي والدته وشقيقته في خطبتها له لم يكن بارادته وعلمه ، فأخذها الغضب ، ووقفت ترتجف من الغيظ . ثم حاولت التجلد وحيت سلمى مستفسرة عن صحتها ، وهنا نهض حبيب واقترب منها بعد ان افاق من ذهول المفاجأة ، ومد يده لتحيتها فترددت في مد يدها اليه، ثم صافحته في برود من غير ان تنظر اليه او ترد على كلامه . وما لبثت ان غادرت الغرفة مسرعة نافرة ، فانطلقت شفيقة في اثرها وهي تضحك، وذهنها خال من حقيقة ما يعتلج في قلب ادما ، فلما رأتها تغادر المنزل فورا عائدة

الى منزلها ، اخذت تناديها مستوقفة اياها ، ولكن ادما لم ترد عليها ومضت في سبيلها لا تلوي على شيء وقد اخذت الغيرة منها كل مأخذ .

فعادت شفيقة الى غرفة سلمى مندهشة من تصرف ادما ، فأخذ حبيب يعنفها ويتهمها بالغباء والجهل وانعدام الذوق لادخالها ادما بغير استئذان ، ولما علم منها ان ادما انصرفت غاضبة وعادت الى منزلها فورا ، اشتد غضبه وسألها عما جعل ادما تتصرف هكذا ، فقالت : « لعلها غضبت من برود استقبالك لها » .

فلم يملك نفسه وصاح بها قائلا : « اغربي من وجهي عليك اللعنة ، ألم أقل لك انك بلهاء لا تفهمين شيئا ولا تحسنين صنعا قط ؟! » .

فخرجت دامعة العينين ، وقلبها يكاد ينفطر غما وحسرة . ثم لاح لها أن تلحق بأدما في منزلها لتقف على سر غضبها ، فما كادت تصل الى المنزل حتى وجدتها قد خلت الى نفسها في غرفتها وراحت تبكي بصوت مرتفع ، وامها في شغل عنها ببعض اعمال المنزل ، فدخلت عليها وقالت لها : « شكرا لك يا ادما ، اعلمت أن حبيبا وبخني واهانني لانك دخلت عليه دون استئذان ؟ » .

فردت عليها غاضبة وقالت : « وهل هذا ذنبي ؟ انما الذنب عليك انت التي ادخلتني عليهما وهما في خلوة يبكيان ويتشاكيان » .

فغضبت شفيقة بدورها لهذا الاتهام الذي لم تكن تتوقعه وقالت : « اية خلوة تعنين ؟ واي بكاء ؟.. أتغارين على حبيب الى هذا الحد ، اين عقلك يا عزيزتي ؟ » .

فصاحت ادما قائلة بلهجة التهكم والاستخفاف : « انني مجنونة لاعقل لي يا سيدتي ، ولهذا لا اراني اصلح لمعاشرة امثالكم من العقلاء ! » .

فوجمت شفيقة ، وكفت عما كانت فيه من البكاء منذ طردها شقيقها من غرفة سلمى ، واخذت تجاهد نفسها لتنسى ما شعرت به من الاهانة .

لكنها ما لبثت ان سمعت ادما تستأنف كلامها قائلة : « أكان من العقل يا سيدتي ان افاجىء الشاب الذي خطبني يتناجى مع فتاة اخرى في غرفة مغلقة ليس فيها معهما احد ، وهما يبكيان ويتشاكيان ، ثم اذا وجدته قد اذهلته المفاجأة وارتبك ولم يدر كيف يخفي الورقة التي كان يتلوها على فتاتـه المفضلة ، تقدمت فركعت بين يديه ، وقبلت قدميه متذللة مستعطفة كي يغفر لي ما ارتكبته من جرم فظيع بتعكير صفو تلك الخلوة الجميلة ؟.. لا .. لا يا سيدتي انني لا اقبل ابدا مثل هذا الوضع ، ولا يمكن ان اضحي بكرامتي وارضى لنفسي مثل هذا الخطيب ولو كان اجمل من يوسف واغنى من قارون » .

وهنا لم تعد شفيقة تملك أعصابها فقابلت ثورة ادما بمثلها وصاحت بها قائلة : « كفاك سخرية وتهكما يا سيدتي ، اننا ما زلنا على البر ، ولم تعقد خطبتك لاخي بعد ، وما دمت لا ترينه اهلا لك فأنت حرة . ولك ان تختاري من هو كفؤ لك ، واجدر منه بحبك واحترامك » .

وكانت والدة ادما قد سمعت صراخهما فأقبلت لترى ما هنالك وقالت لهما : « ما هذا ؟.. ماذا جرى ؟ » .

فقالت ادما : « اتركيني يا اماه ، اني لا اريـد ذلك الرجل ابـدا ، والموت خير لي من .. »

فقاطعتها شفيقة قائلة : « وهو ايضا لا يريدك فاطمئني » . ثم غادرت المنزل غاضبة باكية ، وما كادت تصل الى العطفة المؤدية الى منزل سلمى حتى لقيت والدتها وشقيقها خارجين منها ، فروت لهما الحكاية من اولهـا الى آخرها وهي تبكي وتنتحب . فثارت ثائرة حبيب لاستهانة ادما بـه ومصارحته شقيقته بأنها تؤثر الموت على معاشرته ، وتتهمه بأنه كان في خلوة مريبة مع سلمى ، فقال لشقيقته : « كفى بكاء يا شفيقة ، انني ما رغبت في خطبة هذه الفتاة الا مندفعا باعجابك بأخلاقها وادبها . وما دامت هذه حالها

فلا رغبة لي فيها » .

ثم التفت الى والدته وقال لها : « هل سمعت ؟.. وهل ادركت الآن لماذا كنت راغبا عن الزواج كل ذلك الوقت » .

فقالت : « على رسلك يا بني ، ان الفتيات كثيرات ، ولك علي الا تمضي ايام حتى اخطب لك من هي اجمل واغنى واجدر بك » .

• • •

مضت فترة غير قصيرة ساد فيها السكوت ، ثم التفتت والدة حبيب اليه فجأة وقالت له : « يخيل الي ان هناك سوء تفاهم لم نقف بعد على تفصيله واسبابه ، فأنت تعرف كما اعرف ان العلاقة بين شفيقة وادما كانت على اتم ما يكون من الصفاء وتبادل المودة والتقدير . ولم يحدث بينهما قبل ذلك اي شيء يبرر ما حدث . هذا الى انه حدث في منزل ادما ، وكانت شفيقة بمثابة ضيفة عليها هناك ، ولم تجر العادة بأن يهين احـــد ضيوفه . وعلى كل حال لا بد من وقوفنا بعد قليل على اسباب ما حدث » .

فسكت حبيب ولم يجب ، لاشتغاله بالتفكير في ذلك الامر العجيب ، اما شقيقته شفيقة فنظرت الى والدتها معاتبـــة ثم قالت والدمـــوع تكاد تخنقها : « ما هذا الذي تقولين يا اماه ؟ الا تكفي الاسباب التي ابدتهـــا دليلا على انها لا يمكن ان تصلح زوجة لحبيب ؟ ام تريدين بعد هذا كله ان تتذلل لها وتترامى على اقدامها لعلها تتنازل وتتفضل بقبول خطبة حبيب والتغاضي عن الاتهامات التي ألصقتها به ، كأنما الدنيا كلها ليس فيها من ترضى الزواج به غيرها ؟! » .

فأخذت والدتها في تهدئة خاطرها ، والنصح لها بالصبر حتى تتكشف الحقيقة بعد قليل .

وما زالوا في مثل هذا الحديث حتى وصلوا الى المحطة واستقلـوا القطار عائدين الى منزلهم في حلوان .

١٥

على الباغي تدور الدوائر

حاولت والدة ادما ان تلحق بشقيقة بعد خروجها غاضبة ، لكنها لم تستطع اللحاق بها ، ولم تستمع هذه لندائها . فعادت الى ادما واخـذت تسألها عما حدث وادى الى تلك القطيعة . فلم تجب أدمـا واستمرت في بكائها حتى تفتت قلب والدتها شفقة عليها ، وهمت بها فقبلتها قائلة : « لماذا لا تصارحينني بالحقيقة ، ألست والدتك ؟ »

فقالت : « نعم انت والدتي وليس لي في الحياة من هو اعز منـك ، ولهذا اؤكد لك انني لم اعد اريد حبيبا هذا ولا سواه » .

فقالت : « لكن ماذا جرى ؟ ولماذا لا تريدينه وهو يحبك وقد ارسل والدته وشقيقته لخطبتك له ؟ » .

قالت : « انه لا يحبني ، بل يحب سواي ، وقد تحققت ذلك بنفسي».

فقالت : « عجيبة !.. ومن هي تلك التي يحبها ، وكيف عرفت ذلك؟».

فسكتت ادما ، ولكن والدتها ما زالت تلح عليها حتى علمت منها انها لاحظت من قبل تردده على منزل سلمى ، ولاح لها ان بينهما محبة متبادلة ، لكنها لم تلق بالا الى ذلك . ولما علمت بأنه ارسل يخطبها هي رجحت انها كانت واهمة في محبته لسلمى ، لكنها فاجأتهما مصادفة منذ ساعة وهما في

خلوة يبكيان ويتشاكيان ويد كل منهما في يد الآخر ، ورأت من بغتتهما وارتباكهما ما اكد لها تلك الحقيقة » .

وعبثا حاولت والدتها ان تقنعها بأنها قد تكون واهمة ، لان سلمى مخطوبة لسليم صديق حبيب منذ عهد بعيد وان لم تعلن الخطبة رسميا ، ولان حبيبا لو كان يحب سلمى ما ارسل والدته وشقيقته لخطبتها هي . الى ان قالت لها : « وعلى كل حال ، لنفرض انه احب سلمى من قبل ، فانه لا يلبث بعد عقد خطبتكما وعقد خطبتها رسميا لسليم ، ان ينسى ذلك الحب »

واخيرا ، تم الاتفاق بينهما على ترك الحديث في هذا الشأن ، والا تذكرا شيئا منه امام ابيها ، في انتظار ما يكون .

* * *

وكانت وردة قد تآمرت مع ابنتها اميلي على ان تخلو الى سليم وتجتهد في حمله على وعدها بالاقتران بها واعلان خطبتهما في اقرب فرصة. وتم الاتفاق بينهما على ان تخرج وردة مع والدة سليم للنزهة خارج المنزل بعد الغداء ، ليخلو الجو لاميلي .

فلما انتهوا من تناول الغداء ، وجلسوا في الشرفة يشربون القهوة ويتحادثون ، قال سليم : « اني اشعر باكتمال صحتي والحمد لله ، وقد جاءني خطاب من وكيل مكتبي في القاهرة يتعجل عودتي لمباشرة احدى القضايا المهمة ، وارى ان اجيب هذا الطلب ، وان كنت اود من صميم قلبي الا افارقكم » .

فبغتت اميلي ووالدتها لهذه المفاجأة ، وهما لا تعلمان ما دار من الحديث في شأنهما بين سليم ووالدته . واكتفت اميلي بأن تظاهرت بالبكاء

جزعا من ذلك الفراق ، بينما ابتدرته والدتها قائلة : « ان صحتك يا بني اغلى واهم من كل شيء ، والاحسن ان تتريث حتى يتم شفاؤك ، ثم تعود الى القاهرة بعد يومين او ثلاثة » .

فقالت اميلي لوالدتها وهي تصوب سهام عينيها الى سليم : « لا تلحي عليه يا اماه فلعله مل الاقامة بيننا » .

فردت عليها والدته بقولها : « ان الاقامة معكم لا يمكن ان تمل ، ويا حبذا لو انها دامت الى الابد » .

وقال سليم : « ما اظن ان الابد يكفي » .

فقالت وردة : « لو كان هذا صحيحا ، ما رغبت في التعجيل بالرحيل ، ولكن ماذا نصنع في حظنا ؟ ان المحبة لا تكون (بالنبوت) .. » .

فأخذ سليم يعتذر من تعجيل سفره بأن الضرورة الملحــة هي التي اقتضته ، وحرص على ان يظهر لوردة وابنتها انه لا يمكن ان ينسى فضلهما ولطفهما . الى ان اقتنعتا باصراره على السفر ، فقالت وردة : « اذن يحسن ان نقضي اليوم في النزهة على شاطىء البحر ، كي يعاونك هواؤه النقي على استعادة قواك » .

فقال سليم : « انها نزهة جميلة ولا شك ، ولكني ارى ان انام قليلا بعد الغداء ، اذ انني متعود ذلك » .

فوافقته وردة على امل ان تخرج هي ووالدته في تلك النزهة ويخلــو الجو لاميلي كي تظفر من سليم بما تريدان من مكاشفتها بحبه اياها ورغبته في الاقتران بها .

على ان والدته اعتذرت من عدم استطاعتها الخروج ، ولم تفارق غرفة سليم حتى استيقظ من نومه بعد ساعة ، متظاهرة باعداد حقائبه للسفر في الغد . وما كاد يستيقظ حتى اعرب عن رغبته في ان يمضي ليلتــه بمنزل شقيقه فؤاد ، كي يودعه وقرينته قبل سفره بقطار الصباح ، فلم تجد وردة

واميلي بدا من النزول على رغبته بعد ان اصر عليها قياما بواجبه نحـو شقيقه العزيز ، ولان منزله اقرب الى المحطة .

* * *

ابت والدة سليم الا ان تصحبه الى القاهرة لكي ترى سلمى وتعتذر اليها مما سببته لها من المتاعب والآلام . وكان حبيـب في استقبالهما على المحطة اذ ابرق اليه سليم بموعد وصولهما ، فعانق سليم مهنئا اياه بالشفاء، وقبل يد والدته مرحبا بها ودعاهما الى الاقامة معـه بمنزله في حلـوان ، فشكراه واجلا ذلك الى ما بعد زيارة سلمى . فقال : « اذن امضي واحضر والدتي ونذهب جميعا في هذه المهمة » . فوافقا على ذلك .

وما حان العصر حتى كان قد جاء بوالدته الى غرفة سليم بالفندق ، فعانقت والدة سليم وقبلته مهنئة اياه بالسلامة ، واعتذر اليها من مغادرته منزلها دون علمها فقالت له : « ليس بيننا ما يدعو الى الاعتـذار » . ثم جلست تتحدث هي ووالدته حديث المودة في مختلف الشؤون . بينما انتحى سليم وحبيب ناحية ، فقص الاول حكايته مع سلمى ، وقص الثاني حكايته مع ادما . ثم اخذا يتضاحكان لما تخلل القصتين من سوء تفاهم ادى الى ما وقعا فيه من مشكلات لم ينتهيا من حلها بعد ، واعتزما الانتقام من داود وسعيدة العجوز الماكرة على مساعيهما الدنيئة لحساب وردة وابنتها .

ثم نهضا واصطحبا والدتيهما الى منزل سلمى ، فلما بلغوا منزل ادما في الطريق اليه اشتد خفقان قلب حبيب وتطلع الى شرفة غرفة ادما ، فاذا هي مطلة منها ، فلم يعد يقوى على السير ووقف في مكانه جامدا لا يستطيع رد بصره عن التطلع اليها ، وحانت منها التفاتة اليه فلم تصدق انه هو اول الامر ، ثم رأته يشير اليها بالتحية ويومىء اليها ان تلحق به الى بيت سلمى.

فأخذت تنظر اليه ذاهلة ، ثم تحققت الامر بعد ان تكررت اشاراته لها ووقعت عيناها على سليم بجانبه ولم تكن لذهولها وارتباكها قد تنبهت الى وجوده . فلم يسعها الا ان تومىء اليه بانها ستلحق به الى هناك . وانثنت داخلة من الشرفة حيث خفت الى والدتها وأنبأتها بما حدث والبشر باد في محياها قائلة : « ماذا ترين يا اماه ، لعله عاد الى صوابه وندم على ما فرط منه كما كنا نؤمل ؟ » .

فوافقتها على هذا الرأي ، وقالت لها : « سأذهب معك الى هناك » . ثم تركت ما كانت تقوم به من الاعمال المنزلية ، وسارعت الى ارتداء ثوب الخروج وقلبها لا يقل فرحا عن قلب ابنتها بهذا الاتفاق السعيد .

اما سليم فلم يقو على مواجهة سلمى مفاجأة ، لشدة خجله وندمه على ما فرط في حقها . فاقترح ان تدخل والدتها عليها اولا مع والدة حبيب لتقوم بمهمة التعارف بينهما ، والتمهيد لمقابلته اياها .

* * *

كانت سلمى بعد ان زارها حبيب وتلا عليها خطاب سليم قد اذهلتها المفاجأة ، وكادت الا تصدق رجوعه الى حبها والايمان بطهرها وعفافها ووفائها ، ثم تحققت ان الخطاب بخطه الذي تعرفه كل المعرفة . فأشرق وجهها ، وشعرت بتحسن كبير في صحتها . وما كاد حبيب ينصرف من عندها حتى دعت اليها سعيدة خادمتها العجوز وقالت لها : « يلوح لي يا خالتي ان الله جل شأنه قد كتب لي الخلاص من الشقاء والمرض » .

فأدركت سعيدة بدهائها ان لهذا التغيير علاقة بسليم ، ولا سيما بعد زيارة صديقه حبيب لسلمى ، لكنها تظاهرت بالبشر والابتهاج وقالت : « خيرا يا بنيتي ان شاء الله ، هل سمعت نبأ جديدا عن سيدي سليم ؟ »

قالت : « نعم ، اخبرني حبيب الآن بأنه آت الينا بعد يومين او ثلاثة».

فأجفلت سعيدة خشية على حبوط مساعيها الدنيئة وقالت : « وماذا صنع مع تلك الفتاة التي علق بها وذهب الى الاسكندرية لخطبتها ؟ » .

فقالت : « تخلص منها بعد ان تبين خطأه » .

فوجمت العجوز قليلا ، ثم قالت : « وهل كتب لها خطابا اتهمها فيه بالغدر والخيانة كي يتخلص منها ؟! » .

فأحست سلمى بانقباض عند سماعها عبارة العجوز ، اذ ادركت انها تشير الى خطاب سليم الذي حملته اليها ، لكنها تجاهلت وقالت لها : « لا ادري كيف تخلص منها ، وعلى كل حال متى حضر سنعرف كل شيء » .

فسكتت سعيدة وخرجت من الغرفة متظاهرة بانجازها بعض الاعمال، ثم غادرت المنزل خلسة وتوجهت مسرعة الى بيت داود ، فقصت عليه ما سمعته ، فقال لها : « هذا كله سببه حمق سيدتك وردة وتسرعها عليها لعنة الله . فهي التي فضحتنا وسببت فشلنا بارسالها الى سليم خطأ ذلك الخطاب الذي كتبته الي ، وجاءني بدلا منه الخطاب الاخر الذي كتبته باسم والدته تدعوه فيه الى الحضور » .

ثم واصل حملته على وردة ونعتها بكل نقيصة متأثرا بضياع آماله في المكافأة التي وعدته بها . فلما طلبت اليه سعيدة ان يكف عن حملته على سيدتها ، بادرها بالشتم ورفسها في بطنها رفسة قوية اوقعتها على الارض ، فصرخت من شدة الالم ، وانطلقت تسبه وتلعنه مما زاد في ثورته وغضبه فاستأنف رفسها وهي توالي الصراخ حتى اجتمع عليهما الجيران والمارة ، وخلصوها من بين يديه وهي مشرفة على الهلاك ، ثم جاء رجال البوليس، فحملوها الى القسم بين الموت والحياة ، وقادوه مكبلا بالقيود للتحقيق معه في جريمة شروعه في قتلها .

١٦

اجتماع الشمل

تفقدت سلمى سعيدة بعد انصرافها من غرفتها فلم تجدها بالمنزل ، وعلمت انها غادرته دون علم والدتها ، فقلقت لذلك ، ثم اشتد قلقها حين جاء المساء دون ان تعود . وفيما هي كذلك سمعت طرقا على باب المنزل ، ثم سمعت والدتها ترحب بالقادمين وهي تقودهم الى غرفة الاستقبال . وخفق قلبها بشدة اذ طرق سمعها اسم سليم ، وظنت نفسها واهمة . لكنها ما لبثت ان سمعت صوته هو نفسه فكاد يغمى عليها من فرط الفرح ، وازداد خفقان قلبها وبردت اطرافها . فسارعت الى استنشاق بعض الروائح العطرية . ولبثت ترهف سمعها فسمعت صوته واصواتا اخرى عرفت من بينها صوت حبيب ووالدته ، وعجبت لسماعها صوت سيدة اخرى لا تعرفها . ثم شعرت باقتراب الاصوات ووقع الاقدام في اتجاه غرفتها ، فلم تعد ساقاها تقويان على حملها . وجلست على السرير محاولة التجلد . ثم فتح باب الغرفة ودخلت والدتها ووالدة حبيب ومعهما سيدة متوسطة العمر بسيطة الملابس يفيض وجهها بالطيبة والبساطة والوقار . فهمت سلمى بالوقوف لاستقبالهن فبادرتها هذه السيدة بالكلام قائلة : « لا تتعبي نفسك يا حبيبتي » . وهست بها فقبلتها في حنان وهي تقول : « سلمت الف سلامة ، وسلم هذا الوجه اللطيف من كل سوء » . فقبلت سلمى يد السيدة شاكرة وعيناها تدمعان تأثرا ، وما كادت تسمع والدتها تقول : « هذه خالتك العزيزة والدة عزيزنا سليم » . حتى ازداد تأثرها ، وعادت الى تقبيل يدها والدموع تنهمر من عينيها .

ثم تقدمت والدة حبيب وقبلتها بدورها ، وقالت لها : « الحمد لله

على سلامتك يا بنيتي » . ثم جلسن حول سريرها وام سليم لا تني عن التطلع اليها في اعجاب ملحوظ ، معربة عن اطيب تمنياتها لها بالشفاء التام والسعادة .

وبعد قليل قالت والدة حبيب لسلمى : « ان قلوبنا قد اطمأنت برؤيتك اللطيفة يا عزيزتي . ولكن قلب سليم لا يطمئن الا اذا حظي برؤيتك هو الآخر . فهل ادعوه من غرفة الاستقبال » . قالت ذلك ونهضت وهي تنظر الى سلمى . فلما رأتها أطرقت حياء وسكتت ، مضت الى غرفة الجلوس وعادت ومعها سليم . وما كادت عيناه تقعان على سلمى حتى هاجت اشجانه لما شاهد من نحولها وذبول خديها وتكسر اهداب عينيها . وهم بيدها فأمسكها مصافحا والعبرات تتساقط على خديهما وهما يرتجفان. وبقيا كذلك هنيهة وهما لا يستطيعان الكلام ، ثم قال سليم وهو ما زال ممسكا يدها : «اصفحي عني يا سلمى. اصفحي عن ظلمي وجهلي وحماقتي اني لا استحق الصفح ولكنك ملاك طاهر رحيم ، وعفوك أعظم من اساءتي مهما تكن قد سببت لك من الشقاء والعناء .. » .

وخنقته عبراته فعاد الى سكوته واطراقه، فشهقت هي الاخرى بالبكاء وترنحت في وقفتها وازداد امتقاع لونها ، فأجلسها مترفقا على السرير ، وجاءتها والدتها بزجاجة بها رائحة عطرية رشت وجهها بقليل منها . فلما افاقت نظرت الى سليم وهو واقف امامها في خشوع وقالت له : « ان الله يغفر الذنوب جميعا ، وحسبي من الدنيا انك عدت الى اعتقادك بوفائي واخلاصي » .

فشعر لدى سماعه ذلك منها بكثير من الارتياح ، وتنهد ثم حاول الكلام ليشكرها فلم يستطع لفرط تأثره وبكائه . فهمت والدته بسلمى وربتت كتفها قائلة : « ان هذا لاكبر دليل على عراقة اصلك ونبل اخلاقك يا بنيتي . والحقيقة اني انا المذنبة في حقك لا سليم ، لانني انخدعت

بوشاية المغرضين » . ثم اخذت هي الاخرى في البكاء .

وهنا نهضت والدة حبيب ، فأجلست والدة سليم بجانب سلمى ، واجلسته امامهما بينها وبين والدة سلمى ، وقالت : « الآن يجب علينا ان نحمد الله على اجتماع الشمل وحبوط مكايد الوشاة والحساد . فلنترك البكاء ولنتهيأ للافراح » .

ثم غيرت مجرى الحديث الى مختلف الشؤون العادية ، فجلسوا جميعا يتجاذبون اطرافه في صفاء وسرور .

وبعد قليل فوجىء الجميع بسماع ضحكات عالية في غرفة الاستقبال، ثم دخل حبيب ومعه ادما ووالدتها وفي وجوههم دلائل البشر والابتهاج ، وبعد ان حيوا سلمى وهنأوها بالسلامة وبعودة سليم ، انضموا الى المجلس ، واشتركوا في الحديث .

* * *

كان حبيب قد آثر الانتظار وحده في غرفة الاستقبال حين مضت والدته لدعوة سليم الى مقابلة سلمى في غرفتها ، ليفسح له المجال لاظهار عواطفه . وفيما هو كذلك جاءت ادما ووالدتها فوجدتا الباب الخارجي للمنزل مفتوحا ، فدخلتا وفوجئتا بوجود حبيب وحده في غرفة الاستقبال . فنهض مرحبا بهما ، وهم بيد ادما فأمسكها واجلسها بينه وبين والدتها ، ثم اخذ يشرح لهما حكاية سليم وسلمى من اولها الى آخرها ، ومساعيه لاعادة الوفاق بينهما ، الى ان وصل الى زيارته الاخيرة لسلمى لتلاوة خطاب سليم عليها ، وما تلا ذلك من دخول ادما وشقيقته عليهما ، ثم انصرافهما غيرانة غاضبة ، فاعترفت ادما بانها تسرعت واخطأت بما تفوهت به اثناء ثورتها امام شقيقة . لكنها بقيت في حيرة من امر خطابها الى حبيب

وكيف وصل الى سلمى ، فروى لها ما حدث من ان سليما هو الذي عثر بذلك الخطاب اتفاقا حين كان مريضا بمنزلهم في حلوان ، فظن هو الآخر مثل ظنها وبعث بالخطاب الى سلمى وهو يحسبها كاتبته لمشابهة خطه خطها ، متهما اياها بالغدر والخيانة مما سبب مرضها الذي ما زالت تعانيه .

وهكذا صفا الجو بين حبيب وادما ، ثم نهضوا وهم يتضاحكون ودخلوا غرفة سلمى مسلمين مهنئين .

وفيما هم جميعا هناك ، جاء الخواجه سليمان ، فرحب بالضيوف ولا سيما سليما ووالدته ، وجلس يشاركهم الحديث بعد ان اطلع على ما حدث باختصار .

ثم قالت والدة سليم لوالدة حبيب : « ان كل ما اتمناه الآن ان نحتفل جميعا في وقت واحد بعقد خطبة سلمى لسليم وادما لحبيب » .

فأطرقت سلمى وادما خجلا ، ووافق الجميع على ذلك وقال حبيب : « لكي تتم فرحتنا ، يجب ان ننتقم اولا من داوذ الدساس الكذاب وسعيدة العجوز الماكرة » .

فضحك الخواجه سليمان وقال : « لقد ازاحنا الله منهما وانتقم منهما اغذب انتقام » .

فعجب الجميع لهذا النبأ ، والتفوا حوله مستفسرين عما حدث لهما ، فقال : « مررت منذ ساعتين بقسم البوليس فوجدت زحاما شديدا هناك ، وعلمت ان رجلا حاول قتل امرأة عجوز ، فقبض البوليس عليه رهن محاكمته على هذه الجريمة وعلى ما اتهمته به المصابة من انه حصل على جانب من تعويضات الاسكندرية زورا وبهتانا . ثم رأيت بعض الجنود وهم يحملون العجوز المصابة الى المستشفى وهي بين الموت والحياة ، وما كدت ارى وجهها حتى تبينت انها عجوز النحس سعيدة الماكرة الخبيثة . ولم اكن اعلم تفصيل ما وقفت عليه الآن من لؤمها وخبثها ، وان كنت لم اشعر

بالارتياح اليها منذ التحاقها بالخدمة هنا ، فحزنت على ما اصابها . ولعلها قد انتقلت الآن الى جهنم وبئس القرار » .

فقالت سلمى : « على الباغي تدور الدوائر » . وامن الجميع على كلامها وهم يحمدون الله على ان كفاهم مؤونة الانتقام من تلك العجوز وصاحبها الخائن الجشع المحتال .

واخيرا دعتهم والدة ادما الى تناول العشاء في منزلها القريب ، فقبلوا الدعوة ، وانتقلوا جميعا الى هناك حيث امضوا السهرة مع الخواجه سعيد والد ادما ، واتفقوا على تحديد يوم لعقد خطبة سلمى وادما ، ثم احتفل بزفافهما معا احتفالا شائقا شهده جميع الاقارب والاصدقاء . واكتفوا من الانتقام من وردة وابنتها بعد خيبة آمالهما بأن ارسلوا اليهما بطاقة من بطاقات الدعوة الى الاحتفال بزفاف سلمى لسليم ، فكان لهذه الدعوة وقع دونه وقع السهام المسمومة على قلبيهما ، ولم تستطيعا تلبيتها طبعا حتى لا تزيد رؤية العروسين في احزانهما وحسرتهما على خيبة آمالهما.

وكان نبأ ما حدث لسميدة وداود قد جاءهما قبل هذه الدعوة بقليل .

وظل اهل القاهرة زمنا طويلا وهم يتحدثون بأبهة ذلك الاحتفال وفخامته ، وبما قاساه المحتفل بهم من جهاد المحبين ، الى ان تكلل ذلك الجهاد بالنجاح .

P..

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

١ - فتاة غسان
٢ - أرمانوسة المصرية
٣ - عذراء قريش
٤ - ١٧ رمضان
٥ - غادة كربلاء
٦ - الحجاج بن يوسف
٧ - فتح الأندلس
٨ - شارل وعبد الرحمن
٩ - أبو مسلم الخرساني
١٠ - العباسة أخت الرشيد
١١ - الأمين والمأمون
١٢ - عروس فرغانة
١٣ - أحمد بن طولون
١٤ - عبد الرحمن الناصر
١٥ - فتاة القيروان
١٦ - صلاح الدين الأيوبي
١٧ - شجرة الدر
١٨ - الانقلاب العثماني
١٩ - أسير المتمهدي
٢٠ - المملوك الشارد
٢١ - إستبداد المماليك
٢٢ - جهاد المحبين